نِعمةُ الأُخُوَّة

أَهمِّيَّتها - آدابها - حقوقها

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: نعمة الأخوة - أهميتها - آدابها - حقوقها

تأليف فضيلة الشيخ : فيصل الحاشدي

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٥٩٢٥.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٢٤.

القياس: ١٧x٢٤.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / يسري حسن.

٢٠١٩

الإدارة

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار

جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

نعمة الأخوة

أهميتها - آدابها - حقوقها

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، ونَسْتَعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا، ومن سيِّئَات أعمَالنا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المهتدي، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إله إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ.

أمَّا بعدُ:

فهذه رسالةٌ بعُنوان «**نعمَةُ الأُخُوَّة**» ، كتبتُها لإخواني الَّذينَ أحبُّهم في اللهِ قَبْلَ غيرهِمْ، ورَجَوْتُ أنْ تكونَ تذكيراً لنا جميعًا بنعمةِ الأُخُوَّةِ في اللهِ، التي هي من أجلِّ النِّعَمِ وأَعْظَمِها بعدَ نعمةِ الهُدَى والإيمان.

قال اللهُ – سبحانه وتعالى –: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال اللهُ – سبحانه وتعالى – : ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٣].

فما أروعها من نعمةٍ، فيها منَ النورِ العظيمِ جلالٌ وبهاءٌ وكمالٌ!.

هيَ الأُخُـوَّةُ لا نَبْـغي بِهَـا بدلاً ... ولا نُبالي أَجَاهًا كَانَ أَوْ عرَضا(١)
هي الأُخُوَّةُ في الرَّحْمَنِ تَجْمَعُنا ... لِتَجْلوَ الحِقْدَ والأَسْقَامَ والمرَضَا
حَبْلُ السَّمَاءِ، فَمَنْ يَبْغِي له وَهْنًا (٢) ... تَراهُ مُنْكَسِرَ الآمالِ مُنْقَرِضا

ولا يَقَعَنَّ في رُوْعِكَ (٣) أنَّ هذه الرسالة بِدْعٌ في الرسائِلِ، أو أنَّها شيءٌ

(١) **العرْضُ**: الحَسَبُ.
(٢) **الوَهْنُ**: الضَّعْفُ، وهو مصدر وَهَنَ مِنْ باب وَعَدَ، وكسر العين في الماضي لُغَةٌ فيه.
(٣) **الرُّوْع – بضم الرَّاءِ –** : القلب والعقل.

جديدٌ؛ فلا عِطْرَ بعْدَ عَرُوسٍ، وإنما مِيزاتُها أنَّها حديثٌ منَ القَلْبِ لمن جرى القَلَمُ بذكْرِهِمْ.

مَتَىٰ شَمَّ المُحِبُّ لكمْ نَسِيمًا (١) ... تَلَتْ عَيْناهُ آيَ (٢) الْمُرْسَلاتِ
فَفي فُسَحِ (٣) القُلُوبِ لَكُمْ دِيارٌ ... وذا مَعْنى القُلُوبِ العامِراتِ
أَتُسْعِدُنا بقُرْبِكُمُ اللَّيالي ... وَصُبْحُ الوَصْلِ يَمْحو القاطِعاتِ؟!
أحِبَّتَنا وَحِفْظُ الوُدِّ دَيْنٌ ... وَنَحْنُ على العُهُودِ السَّالِفاتِ (٤)

وأخيرًا: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ (٥) لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)** ﴾ [الحشر: ١٠].

مُحبُّكم في اللهِ

أبو عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

---

(١) **النَّسيم**: الريح الطَّيِّبَة، والجمع أنْسام.
(٢) **آي**: جمع آية.
(٣) **فُسَح**: جمْع فُسْحةٍ، وهي السَّعَةُ.
(٤) **السَّالفات**: الماضيات.
(٥) **الغِلّ - بالكسر -**: الحِقْدُ، وبابُهُ فَرَّ.

تعريفُ نعمةِ الأُخُوَّةِ

أوَّلاً - تعريف كلمة «نعمة» لُغَةً:

تدلُّ كلمةُ نعمةٍ على الحالةِ التي يستَلِذُّها الإنسانُ، ويُرادُ بها رَفَاهِيَةُ وطيبُ العيشِ .

قـال في اللِّسـانِ : «النَّعيمُ، والنُّعْمَى، والنَّعْمَاءُ، والنِّعْمَةُ: كُلُّهُ الخَفْضُ، والدَّعَةُ، والمالُ، وهو ضِدُّ البَأْسَاءِ والبُؤْسَى، وجمعُ النِّعمةِ: نِعَمٌ وأَنْعُمٌ، والنُّعْمُ - بالضَّمِّ - خلافُ البُؤْسِ، يُقال: يَوْمٌ نُعْمٌ، ويَومٌ بُؤْسٌ، والجمْعُ أَنْعُمٌ وأَبْؤُسٌ، ونَعُمَ الشيْءُ نُعُومَةً: أَيْ صارَ ناعمًا ليِّنًا.. والتَّنَعُّمُ: التَّرَفُّهُ، والاسمُ النِّعْمةُ... والنَّعْمَةُ - بالفتحِ -: التَّنْعيم.. والنِّعْمةُ: اليَدُ البَيْضاءُ الصَّالحةُ، والصَّنيعَةُ، والمِنَّةُ، ومَا أُنْعِمَ به عليك، ونِعْمَةُ اللهِ - بكسرِ النُّونِ -: منُّهُ وما أعطاهُ اللهُ العبدَ مِمَّا لا يمكن غَيْرُهُ أنْ يُعْطِيَهُ إيَّاهُ: كالسَّمْعِ، والبَصَرِ...» (١) .

تعريفُ النّعمةِ اصطلاحاً:

هي ما يُنْتَفَعُ به ويُسْتَلَذُّ، وما دامت هناك لَذَّةٌ في المعاصي، فلها ضابطٌ، وضابطُها ما حُمِدَتْ عاقِبَتُهَا، ولَيْسَتِ المعاصي كذلك .

وقال بعضهم: لا حاجَةَ لهذِهِ الزِّيادة؛ لأنَّ اللَّذَّةَ عندَ المحقِّقينَ: أمْرٌ تُحْمَدُ عاقِبَتُهُ، فَكُلُّ نعمَةٍ لا تُقَرِّبُ مِن اللهِ - سبحانه وتعالى - فهيَ بَلِيَّة وليستْ بنعمةٍ(٢) .

قال أبو حامدٍ الغزاليُّ : «اعلمْ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ ولَذَّةٍ وسعادةٍ، بل كُلَّ مطلوبٍ ومُؤْثَرٍ - فإنَّهُ يُسمَّى نعمةً بالحقيقةِ هي السعادة الأُخرويَّة، وتسْمية ما سواها نعمةً وسعادةً إمَّا غلط، وإمَّا مجاز: كتسمية السعادة الدُّنْيويَّة التي لا تُعينُ على

(١) «لسان العرب» (١٤/ ١٠٩) .
(٢) انظر «تفسير أبي السُّعود» (١/ ١٨) .

الآخِرَةَ نعمةً، فإنَّ ذلك غلط مَحْضٌ، وقدْ يكونُ اسمُ النِّعْمةِ للشيءِ صدْقًا، ولكنْ لا يكون إطلاقُهُ على السعادة الأُخرويّة أَصْدَقَ، فكلُّ سببٍ يُوصلُ إلى سعادةِ الآخرةِ، ويُعِينُ عليها – إمَّا بواسطةٍ واحدةٍ، وإمَّا بوسائطَ – فإنَّ تسميتَهُ نعمةً صحيحة وصدق؛ لأجل أنَّهُ يُفْضي إلى النِّعْمةِ الحقيقةِ » (١) .

ثانيًا - تعريفُ كلمةِ «الأُخُوَّة» لُغَةً :

الأخ من النَّسَبِ معروف: وَهوَ مَنْ جَمَعَتْكَ وإيَّاهُ صُلْبٌ أَوْ بَطْنٌ، وقَدْ يكونُ الصَّديقَ والصَّاحِبَ، وجمْعُ الأَخِ إِخْوَةٌ وإخْوان.

قال أبو حاتم : « قال أهلُ البَصْرَةِ أجْمَعونَ: الإِخْوَة في النَّسَبِ، والإِخْوانُ في الصَّدَاقَةِ » (٢) .

وقال ابْنُ الجَوْزِيِّ : « الأَخُ: اسمٌ يُرادُ بهِ المسَاوِي والمُعادلُ، والظَّاهرُ في التَّعارُفِ أنَّهُ يُقالُ في النَّسَبِ، ثُمَّ يُسْتَعَارُ في موضعٍ تدلُّ عليه القَرِينَةُ، ويُقالُ: تأَخَّيْتُ الشَّيْءَ: أي تحرَّيْتُهُ » (٣) .

تعريفُ الأُخُوَّةِ اصْطِلاحًا :

قيلَ : « هي مُشاركَةُ شَخْصٍ لآخرَ في الوِلادَةِ منَ الطَّرَفَيْنِ، أو مِنْ أحَدِهما، أو مِنَ الرَّضاعِ، ويُسْتَعَارُ لكُلِّ مُشارِكٍ لغيرِه في القَبيلةِ، أو في الدِّينِ، أو في صِنْعَةٍ، أو في مُعَامَلَةٍ، أو في مَوَدَّةٍ، أو في غير ذلك من المناسبات » (٤) .

قال ابنُ حَجَرٍ في قوله – تعالى – : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]: « يعني في التَّوادِّ، وشُمُولِ الدَّعْوَةِ » (٥) .

(١) « إحياء علوم الدِّين » (٤/ ٩٩) .
(٢) « لسان العرب » (١٤/ ١٩) .
(٣) « نزهة الأعين النواظر » (١٣١) .
(٤) « مفردات الراغب » (ص١٣) .
(٥) « فتح الباري » (٧/ ٣١٧) .

وقال المناوي : «الأَخُ: هذا النَّاشئُ مع أخيهِ مِنْ مَنْشَإٍ واحدٍ على السَّواءِ بوجْهٍ ما»[١].

وقال الكفويُّ : «الأَخُ: كُلُّ مَنْ جَمَعَكَ وإيَّاهُ صُلْبٌ أو بَطْنٌ، والأُخُوَّةُ تُسْتَعْمَلُ في النَّسَبِ، والمشابَهَةِ، والمشارَكَةِ في شَيْءٍ»[٢].

(١) «التوقيف على مهمَّات التعاريف» للمنَّاويِّ (ص٤١).
(٢) «الكُلِّيَّات» للكفويِّ (ص٦٣).

فَضَائِلُ الأُخُوَّةِ

مِنْ فَضائلِها ما يأتي :

[١] محبَّة الأخِ لأخيه مِنْ أَوْثَقِ عُرَا الإيمان :

فَعَنْ ابن عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال : قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : «**أَوْثَقُ عُرَا الإيمانِ : الموَالاةُ في اللهِ ، والمُعَادَاة في اللهِ ، والحُبُّ في اللهِ ، والبُغْضُ في اللهِ**» (١) .

[٢] المُتحابُّونَ في الله يُظلُّهُمُ الله في ظِلِّ عَرْشِه يومَ القيامة :

فَعَنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : «**إنَّ اللهَ - سبْحانَهُ وتعالى - يقولُ يومَ القيامَةِ : أينَ المُتحابُّونَ بجلالي ؟ ، اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظلِّي**» (٢) .

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال : قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : «**سَبْعَةٌ يُظلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ** : (وذكر منهم) **ورَجُلانِ تحابَّا في اللهِ ، اجْتَمَعا عليهِ ، وتفرَّقا عليه**» (٣) .

[٣] أنَّ اللهَ أَوْجَبَ مَحبَّتَهُ للمُتحابِّينَ فيه :

فَعَنْ ابن عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال : قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : «**قال اللهُ - سبحانه وتعالى - : وَجَبتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فيَّ ، والمُتَجالِسينَ فيَّ ، والمُتباذِلينَ فيَّ ، والمُتزاورينَ فيَّ**» (٤) .

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ (٣ / ١٢٥ / ٢) ، والبَغَويُّ في « شَرْحِ السُّنَّةِ » (١٣ / ٥٣ / ٣٤٦٨) ، وَحَسَّنَهُ الألْبانيُّ في « الصَّحيحَة » (٩٩٨) .

(٢) أخرَجَهُ مُسْلِم (٢٥٦٦) .

(٣) رواه البخاريُّ (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) .

(٤) أخرجه أحمد (٥ / ٢٣٣ / ٢٤٧) ، والطَّبرانيُّ في « الكبير » (٢٠ / ٨٠ / ٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤ / ٢٨٦) ، وقال : صحيح الإسنادِ على شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ووافَقَهُ الذَّهَبيُّ، وابن =

وعنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عن النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - قال: «**إنَّ رجُلاً زارَ أخًا له في قريةٍ أُخْرى، فأَرْصَدَ** (١) **اللهُ - سبحانهُ وتعالى - على مَدْرَجَته** (٢) **مَلَكًا، فلمَّا أتَى عليه قال: أينَ تُريدُ؟. قال: أُريدُ أخًا لي في هذه القَرْيَة. قال: هلْ لكَ عليه من نعمةٍ تَرُبُّها** (٣) **عليه؟. قال: لا، غيرَ أنِّي أَحْبَبْتُهُ في اللهِ - تعالى -. قال: فإنِّي رسولُ اللهِ إليك بأنَّ الله قدْ أَحَبَّكَ، كَمَا أَحْبَبْتَهُ فيه**» (٤).

[٤] **أنَّها سَببٌ لتذوُّقِ حَلاوةِ الإيمانِ:**

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**مَنْ سَرَّهُ أنْ يَجِدَ حلاوةَ الإيمانِ، فَلْيُحِبَّ المْرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ - عزَّ وجلَّ -**» (٥).

وعَنْ أنَسِ بنِ مالكٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُمَا، وأَنْ يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّهُ إلاَّ للهِ، وأَنْ يكْرَهَ أَنْ يعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ**» (٦).

[٥] **أنَّ المُتَحابِّينَ في اللهِ لهم مَنَابِرُ مِنْ نورٍ، يَجْلِسونَ عليها يَوْمَ القيامَة:**

فَعَنْ ابن عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**قالَ اللهُ - سبحانَهُ**

= حِبَّانَ في صحيحه (٢ / ٣٣٥) ، برقم (٥٧٥) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسنادُهُ صحيحٌ على شرط الشَّيْخَين، وصحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

(١) **أَرْصَدَهُ لكذا** : أعدَّهُ له، ووكَّله بحفْظه .

(٢) **المَدْرَجَةُ** : الطَّريق، سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ النَّاسَ يمرُّونَ عليها .

(٣) **ترُبُّها** : أي تقوم بإصلاحِها، وتَنْهَضُ إليه بسبب ذلك .

(٤) رواه مُسلمٌ (٢٥٦٧) .

(٥) رواه أحمد (٢ / ٢٩٨)، والطَّيالسيُّ (٢٤٩٥) ، والحاكم (١ / ٤) ، (٤ / ١٦٨) وصحَّحَهُ ، ووافَقَهُ الذَّهَبيُّ ، ورواه البَغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٣ / ٥٣) ، وقال الهَيْثَميُّ في «المجمع» (١ / ٩٠) : رجاله ثقاتٌ، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٦٤) .

(٦) رواه البخاريُّ (١٦) ، ومسلم (٤٣) .

وتعـالى –: المتحـابُّونَ في جـلالي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمُ [١] **النَّبِيُّون والشُّهداءُ»** [٢] .

وعَنْ عُبَادَةَ بن الصَّامت – ﷺ – قـالَ: قال رسولُ الله – ﷺ –: «**قالَ اللهُ – سُبْحانَهُ وتعالى –: حُقَّتْ** [٣] **محبَّتي لِلمُتحابِّينَ فيَّ، وحُقَّتْ محبَّتي للمُتواصلين فيَّ، وحُقَّتْ محبَّتي للمُتناصحين فيَّ، وحُقَّتْ محبَّتي للمتزاورين فيَّ، وحُقَّتْ محبتي للمتباذلين فيَّ، المتحابُّونَ فيَّ على مَنَابرَ مِنْ نورٍ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ والصِّدِّيقونَ، والشُّهداءُ»** [٤] .

[٦] أنَّ المَرْءَ يُحْشَرُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ :

فعن أَنَسِ بْنِ مَالكٍ – ﷺ – أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبيَّ – ﷺ – عَنِ السَّاعة، فقال: مَتَى السَّاعَةُ؟. قال: «**وما أعْدَدْتَ لها؟**» قالَ: لا شَيْءَ، إلاَّ أني أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ. فقال – ﷺ –: «**أَنْتَ مع من أَحْبَبْتَ**». قال أنَسٌ: فما فرحْنَا بشيءٍ فَرَحَنا بقولِ النَّبيِّ – ﷺ –: «**أَنْتَ معَ مَنْ أحْبَبْتَ**». قال أنسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبيَّ – ﷺ –، وأبا بكرٍ، وعُمَرَ، وأرجو أنْ أكونَ مَعَهُمْ بحُبِّي إِيَّاهُم، وإنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أعمَالِهِم [٥] .

وعنْ أَبي موسى الأَشْعَريِّ – ﷺ – قال: جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ – ﷺ – فقال: يا رسولَ الله، الرَّجُلُ يُحِبُّ القَوْمَ ولَمْ يَلْحَقْ بِهِم؟. فقال – ﷺ –: «**المرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» [٦] .

---

(١) **الغِبْطَة – بكسر الغين –** : تَمَنِّي مثل ما للمغبوطِ مِنْ نِعْمَةٍ دونَ تَمَنِّي زوالها عَنْهُ، وليستْ بحَسَدٍ، والفعلُ غَبَطَ من باب ضَرَبَ.

(٢) رواهُ أحمد في «المسند» (٥ / ٢٣٩) ، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣١٢).

(٣) **حُقَّتْ** : وَجَبَتْ .

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٥ / ٢٢٩)، والبَغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٣ / ٥٠)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٢٠)، والأرناؤوط في «تخريج شرح السُّنَّة» (١٣ / ٥٠) .

(٥) رواه البخاري (٦٣٨٨) ، ومسلم (٢٩٥٣).

(٦) رواه البخاريُّ (١٠ / ٥٥٧) ، ومسلم (١٦ / ١٨٨) .

[٧] أنَّ أعْظَمَ الأصْحابِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً أَشَدُّهما حُبًّا لصاحبِهِ :

فعَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ – رضي الله عنه – قالَ : قالَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – : «**ما تحابَّ اثنانِ في اللهِ – سبحانه وتعالى – إلاَّ كانَ أَفْضَلُهما أَشَدَّهُما حُبًّا لصاحِبِهِ**» (١) .

وعَن ابنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – قال : قالَ رسولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – : «**خَيْرُ الأَصْحابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصاحِبِه**» (٢) .

[٨] أنَّ المحبَّةَ في اللهِ مِنَ الإِيمانِ ، وإِفشاءُ السَّلامِ سَبَبٌ لحصُولِها :

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قال : قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – : «**لا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمنوا ، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلا أَدُلُّكُم على شَيْءٍ إِذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**» (٣) .

قالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ الله – :

« وأمَّا مَعْنَى الحديث : فقوله – صلى الله عليه وسلم – : «**ولا تُؤْمِنوا حتَّى تحابُّوا**» مَعْنَاهُ : لا يَكْمُلُ إِيمانكُم ، ولا يصلُحُ حَالُكُمْ في الإِيمانِ إِلاَّ بالتَّحابِّ » (٤) .

---

(١) رواه البخاريُّ في « الأدب المفرد » (٢٥٦٧) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الأدب المفرد » (٤٢٣)، و« صحيح الجامع » (٥٥٩٤) .

(٢) رواه الترمذيُّ (١٩٤٤) ، وقال : حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ ، والحاكم (٤ / ١٦٤) ، وقال : صحيح على شرطهما ، ولم يُخرِّجاه ، ووافقه الذَّهبيُّ ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٢٧٠) .

(٣) رواه مسلم (٥٤) .

(٤) « شرح النَّوويِّ على صحيح مسلم » (٢ / ٣٩) .

من آداب الأُخوَّة

[١] التَجَرُّدُ في الأُخُوَّةِ.

[٢] انْتِقَاءُ الإخْوانِ.

[٣] الأُلْفَةُ.

[٤] التَّعَارُفُ.

[٥] التَّوَسُّطُ في المحبَّةِ.

[٦] عَاطِفَةُ الأُخُوَّة.

[٧] مَنْ لَكَ بأَخِيكَ كُلِّهِ.

[٨] أَقْلِلْ عِتَابَكَ.

التَّجَرُّد في الأُخُوَّةِ

الأُخُوَّة في الله لا تكونُ مقْبُولَةً عِنْدَ الله حتَّى تكونَ مُجَرَّدةً من أيِّ نَفْعٍ، ومن أيِّ مَأْرَبٍ خاصٍّ، وإنَّما لله، وفي الله، وعلى طاعة الله.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**إنَّ رجُلاً زارَ أخًا له في قريةٍ أُخْرى، فأَرْصَدَ اللهُ - سبحانهُ وتعالى - على مَدْرَجَته مَلَكًا، فلمَّا أتى عليه قال: أينَ تُريدُ؟ قال: أُريدُ أخًا لي في هذه القَرْيَة. قال: هلْ لكَ عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟. قال: لا، غيرَ أنِّي أَحْبَبْتُهُ في الله - تعالى -. قال: فإنِّي رسولُ الله إليك بأنَّ الله قدْ أَحَبَّكَ، كمَا أَحْبَبْتَه فيه**» (١).

وعنهُ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**مَنْ سَرَّهُ أنْ يَجِدَ طَعْمَ الإيمانِ، فَلْيُحِبَّ المْرْءَ لا يُحبُّهُ إلاَّ لله**» (٢).

وعن ابن عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**أَوْثَقُ عُرَا الإيمانِ: الموَالاةُ في الله، والمُعَادَاةُ في الله، والحُبُّ في الله، والبُغْضُ في الله**» (٣).

فاجعَلْ - أخي في الله - حُبَّكَ لأخيكَ خالصًا لله غَيْرَ مُنْتَظِرٍ مُقارضةً على هذا الحبِّ؛ فذَلكَ مِنْ كَمَالِ التَّوْحيد، كما قال ابن رجبٍ الحَنْبَليِّ - يرحمهُ اللهُ -: «ومِنْ تَمَامِ مَحبَّة الله مَحَبَّةُ مَا يُحبُّهُ، وكَرَاهَةُ مَا يكْرَهُهُ، فَمَنْ أَحبَّ شيئًا ممَّا كَرِهَهُ اللهُ، أَوْ كَرِهَ شيئًا ممَّا يُحبُّهُ اللهُ - لَمْ يَكْمُلْ تَوْحيدُهُ وصدْقُهُ في قول لا إله إلاَّ اللهُ، وكانَ فيه مِنَ الشِّرْكِ الخَفِيِّ بِحَسَبِ ما كَرِهَهُ مِمَّا أحَبَّهُ اللهُ، ومَا أَحبَّهُ ممَّا يكرهُهُ اللهُ» (٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «موارد الظمآن» لعبد العزيز السليمان (١/ ٧١٥).

وقـال ابنُ القَـيِّمِ - يرحـمـهُ اللهُ - : « مَنْ أَحبَّ شيـئًـا سـوى اللهِ، ولـمْ تَكُنْ مَحَبَّتُهُ له لله، ولا لكونِهِ مُعينًا له على طاعةِ اللهِ – عُذِّبَ به في الدُّنْيا قبْلَ اللِّقاءِ.

كما قِيل :

أَنْتَ القَـتِـيلُ بكُلِّ مَنْ أَحْـبَـبْـتَـهُ   فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ في الهَوى مَنْ تَصْطَفي »[١]

وقالَ بعضُ الشُّعَراءِ - وَأَحسَنَ - :

وَأَحْبِبْ – لِحُبِّ اللهِ – مَنْ كانَ مُؤْمِنًا   وَأَبْغِضْ – لِبُغْضِ اللهِ – أَهْلَ التَّمَـرُّدِ
وما الدِّينُ إِلاَّ الحُبُّ، والبُغْضُ، والوَلا   كَذاكَ البَـرَا مِنْ كُلِّ غـاوٍ ومُعْتَدي.

(١) المرجع السابق (١/ ٧١٨).

انْتِقَاءُ الإخْوانِ

انتقاءُ الإِخوانِ ليس بهيِّنٍ، بلْ إِنَّهُ بعيدُ المَنَالِ، مُعْجِزُ الدَّرْكِ، فما كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُصاحَبَ أوْ يُعَاشَرَ، أو يُسارَرَ؛ فَعَلَيْنا أن ننظُرَ مَنْ نُصاحِبَ، وإلى ذلك أَرْشَدَنَا نَبِيُّنا - ﷺ - .

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**الرَّجُلُ على دينِ خَلِيلِه؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلْ**» (١).

ففي هذا الحديث حثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على انتقاءِ الإِخْوَانِ واختيارِهِمْ؛ لأنَّ للإِخْوانِ مِنَ التَّأْثيرِ مَا لَيْسَ لغَيْرِهِم، ويُؤَكِّدُ ذَلكَ حَديثُ أبي موسى الأَشْعَرِيِّ - رضي الله عنه - قال: قالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالحِ، والجَليسِ السَّوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ، ونَافِخِ الكِيرِ** (٢)**؛ فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أنْ يُحْذِيَكَ** (٣)**، وإِمَّا أن تَبْتَاعَ مِنْهُ** (٤)**، وإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ إِمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خبيثةً**» (٥).

فهَذَا التَّشبيهُ العظيمُ من تمامِ حرْصِهِ - ﷺ - على أُمَّتِه بِتوْجِيهِها إِلى الخَيْرِ، وتَحْذِيرِها مِنَ الشَّرِّ؛ فإِنَّ المجالسَةَ تُوَلِّدُ المجانَسَةَ، كما قيل:

صَحِبْتُكُمْ فَازْدَدْتُ نوراً وبَهْجَةً ... وَمَنْ يَصْحَبِ الطيبَ المُعَطَّرَ يَعْبَقُ (٦)

---

(١) رواه أحمد (٧٢١٢)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرْمذيُّ (٢٣٨٧)، وقال: حَسَنٌ صحيحٌ، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٩٢٧).
(٢) **الكير - بالكسر -**: زقٌّ يَنْفُخُ فيه الحدَّادُ.
(٣) **يُحْذيك**: يُعْطيكَ.
(٤) **تَبْتاعَ منه**: تطلب البَيْعَ منه.
(٥) رواه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلمٌ (٢٦٢٨).
(٦) **يُقال: عَبِقَ بهِ الطِّيبُ عَبَقًا**: أي لَزِقَ ولَصِقَ به، وبابُهُ فَرِحَ.

فعلينا أنْ نَحْرِصَ على انتقاءِ الإخْوَانِ الصَّالحِينَ المعروفينَ بحُسْنِ السِّيرةِ، وسلامَةِ المُعْتَقَدِ.

فَعَنْ عَمْرو بن العاص – رضي الله عنهما – قالَ: قالَ رسولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: «**أَلا إِنَّ آلَ فُلانٍ لَيْسوا بِأَوْلِيائي، إِنَّما وليِّيَ اللهُ، وصالِحُ المؤمنينَ**»(١).

وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ – رضي الله عنه – أنَّ النَّبيَّ – صلى الله عليه وسلم – قال: «**لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا، ولا يأْكُلْ طعامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ**»(٢).

والنَّهيُ في المصاحبةِ يَشْمَلُ النَّهيَ عَنْ مُصاحَبَةِ أَهْلِ الكبائرِ والفجورِ؛ لأنَّهم ارتكبوا ما حَرَّمَ اللهُ، ومصاحبَتهم تضُرُّ بالدِّينِ، ويَشْمَلُ النَّهيَ عن مُصاحبةِ الكُفَّارِ والمنافقين، وكُلِّ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسولَهُ.

قالَ الخطَّابيُّ – رحمه اللهُ – مُعلِّقًا على قولِهِ – صلى الله عليه وسلم –: «ولا يأْكُلْ طعامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ»: «إنَّما جاءَ هذا في طعَامِ الدَّعْوَة دونَ طعامَ الحاجة؛ وذلك لأنَّ اللهَ – سبحانه وتعالى – قالَ: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ [الإنسان: ٨]، ومَعْلومٌ أن أَسْرَاهُمْ كانوا كُفَّاراً غَيْرَ مُؤْمنين ولا أتقياءَ، وإنَّما حذَّرَ – عليه السلام – من صُحْبَةِ مَنْ لَيسَ بتقيٍّ، وَزَجَرَ عن مُخالطَتِهِ ومُؤاكَلَتِهِ؛ فإنَّ المُطَاعَمَةَ تُوقِعُ الأُلفَةَ والمودَّةَ في القُلوبِ»(٣).

وقد ذَكَرَ أَهْلُ العلمِ فيمَنْ تُؤْثَرُ صُحْبَتُهُ خَمْسَ خِصَالٍ:

أنْ يَكُونَ عاقِلاً، حَسَنَ الخُلُقِ، غَيْرَ فَاسِقٍ، ولا مُبْتَدِعٍ، ولا حَريصٍ على الدُّنيا.

أَمَّا العَاقِلُ فذلك لكونِ العَقْلِ رأس المالِ، فلا خَيْرَ في صُحْبَةِ الأَحْمَقِ؛ لأنَّهُ

(١) رواه أحمد (١٠٩٤٤)، والترمذيُّ (٢٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٣٢)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ.
(٢) رواه أحمد (٣/٣٨٠)، والتّرمذيُّ (٢٣٩٥)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٣٤١).
(٣) «عون المعبود في شرح سنن أبي داود» (١٣١٢٣) المجلَّد السَّابع.

– كما يقولُ ابنُ حبَّانَ – رحمهُ اللهُ – كالحيَّةِ الصَّمَّاءِ، لا يوجَدُ عندها إلاَّ اللَّدغُ والسُّمُّ (١).

وأَمَّا حُسْنُ الخُلُقِ فهو الأساس بعد الإيمان بالله.

قال ابنُ حَزْمٍ – يرحمهُ اللهُ – : «مَنْ طَلَبَ الفضائلَ لمْ يُسايرْ إلاَّ أهلَها، ولَمْ يُرافقْ في تلْكَ الطَّريق إلاَّ أكْرَمَ صديقٍ منْ أَهْلِ المواساة، والبرِّ، والصِّدْقِ، وحُسْنِ العِشْرَةِ، والصَّبْرِ، والوفاء، والأَمَانَةِ، والحِلْمِ، وصفاءِ الضَّميرِ، وصحَّة المودَّة» (٢).

وقال ابنُ حبَّانَ – يرحمهُ اللهُ – : «العَاقلُ لا يُؤاخي إلاَّ ذا فَضْلٍ في الرَّأْي، والدِّينِ، والعِلْم، والأَخْلاق الحَسَنَة، ذا عَقْلٍ نَشَأَ معَ الصَّالحينَ؛ لأنَّ صُحْبَةَ بليدٍ نَشَأَ مع العُقلاءِ خَيْرٌ مِنْ صُحْبَةِ لبيبٍ نَشَأَ معَ الجُهَّال» (٣).

ولكي تَعْرِفَ هل مَنْ تُصاحِب ذو أخلاقٍ؛ انظُرْ مَنْ يُصاحِب غيرك؛ فقديمًا قيلَ: «قُلْ لي من تُصاحِبُ؟ أُخْبِرْكَ مَنْ أَنْتَ».

وقالَ بعضُ الحُكَمَاءِ : «اعرفْ أخاكَ بِأَخيه قَبْلَكَ» (٤).

وقال أعرابيٌّ : «اعرفِ النَّاسَ بإِخْوانِهِم» (٥).

وقال الشَّاعِرُ :

عَنْ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِه ... فَكُلُّ قَرينٍ بالْمُقارِنِ يَقْتَدي
وَصَاحِبْ أُولي التَّقْوى تَنَلْ مِنْ تُقاهُمُ ... ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى معَ الرَّدي

وإِذَا أَرَدْتَ – أيضًا – أن تعرِفَ أخْلاقَ من تُصاحِبُ فسافر مَعَهُ؛ فالسَّفَرُ

(١) «روضة العقلاء» (ص١٤٤).
(٢) «الأخْلاق والسِّيَر» (ص٩٢).
(٣) «روضة العُقلاء» (ص١٤٧).
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص١٦٥).
(٥) المرجع السابق (ص١٦٧).

يُسْفِرُ عن حقائقِ النُّفوسِ، ولهذا كانت العَرَبُ تقولُ: « السَّفَرُ ميزانُ القومِ » (١) ؛ لأنَّهُ يُسْفِرُ عن كثيرٍ مِنْ أخلاقِهِم وطبائعهم.

ابْلُ الرِّجالَ (٢) إذا أَرَدْتَ إِخاءَهُمْ ... وَتَوَسَّمَنَّ (٣) أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ
فإِذَا ظَفِرْتَ بذي الأَمانَةِ والتُّقَى ... فَبِهِ (٤) اليَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فاشْدُدِ

وأمَّا الفاسِقُ فلأنَّه سارقٌ، يَسْرِقُ مِنْ دينِكَ قَبْلَ أنْ يَسْرِقَ من أَخْلاقِكَ، فكيف تُؤْثِرُ صُحْبته وهو يتغيَّرُ بتغيُّرِ الأغراضِ والأهواء؟!.

قالَ اللهُ – سبحانه وتعالى –: ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابنُ حبَّانَ – يرحَمْهُ اللهُ –: « العاقِلُ لا يُصاحِبُ الأشرارَ؛ لأنَّ صُحْبَةَ صاحِبِ السَّوْءِ قطْعَةٌ من النَّارِ، تُعْقِبُ (٥) الضَّغائِنَ (٦)، لا يسْتَقيم ودُّهُ، ولا يفي بعهْده، وإِنَّ مِنْ سعادَةِ المرْءِ خِصالاً أربعًا: أَنْ تَكونَ زوجَتُهُ موافقةً، وولدُهُ أَبْراراً، وإِخْوانُهُ صالحينَ، وأَنْ يكونَ رزقُهُ في بلدِهِ، وكُلُّ جليسٍ لا يَسْتَفيدُ منه المرءُ خيراً تكونُ مُجالسَةُ الكَلْبِ خيراً مِنْ عِشْرَتِه، وَمَنْ يَصْحَبْ صاحِبَ السَّوءِ لا يَسْلَمْ، كما أنَّ مَنْ يَدْخُلُ مداخِلَ السُّوءِ يُتَّهَمُ » (٧).

وَأَهْوَى مِنَ الشُّبَّانِ كُلَّ مُجَنَّبٍ ... عَنِ اللَّهْوِ مِقْدَامًا إِلى كُلِّ طاعَةِ
أَخو عِفَّةٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مُحَرَّمٍ ... وذُو رَغْبَةٍ فيما يَقُودُ لجَنَّةِ

---

(١) « عيون الأخبار » (١/٢١٨).
(٢) **ابْلُ**: اخْتَبِرْ وَجَرِّبْ.
(٣) **تَوَسَّمَنَّ**: تفَرَّسَنَّ.
(٤) **فَبِه**: أي عض عليه وقربه عينا؛ فمثله عزيز.
(٥) **تُعْقِبُ**: تُورِثُ.
(٦) **الضَّغائنُ**: الأَحْقَاد، مفردها ضغينة.
(٧) « روضة العُقلاء » (ص١٠١).

تَمَسَّكْ بِهِ إِنْ تَلْقَهُ – يا أخا التُّقى – تَمَسُّكَ ذي بُخْلٍ بِتِبْرٍ[١] وفِضَّةِ

وأمَّا المبْتدع ففي صُحْبَته بلاءٌ خطيرٌ، وشَرٌّ مسْتَطيرٌ؛ فالمبتدع أشدُّ خطرًا، وأعظمُ ضرراً من الفاسق؛ لأنَّه يُلْبِسُ بِدْعَتَهُ ثَوْبَ الباطِلِ على جِسْمِ الحقِّ، وأكثر أئمَّة السَّلَفِ على التَّحْذيرِ من صُحْبَةِ المبْتدِعِ.

قالَ سَعيدُ بْنُ جُبيرٍ – رحمه اللهُ – : «لأنْ يُصاحبَ ابني فاسقًا شاطِرًا – أي قاطعَ طريقٍ – سُنِّيًّا أحبُّ إِليَّ مِنْ أنْ يَصْحَبَ عابداً مُبْتدعًا»[٢].

وكثيرٌ مِمَّنْ صاحبَ أَهْلَ البِدَعِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِم[٣].

قال الذَّهَبيُّ – رحمه اللهُ – في ترجَمَةِ الريوندي : «وكان يُلازمُ الرَّافضةَ والملاحِدَةَ، فإِذا عُوتِبَ قال: إِنَّما أُريدُ أن أعرفَ أقوالَهم، إِلى أَنْ صارَ مُلْحِداً، وحَطَّ[٤] على الدِّينِ والمِلَّةِ»[٥].

وقال – يرحمهُ اللهُ – في ترجمة ابن عقيلٍ الحنبليِّ، حيثُ نقلَ عنهُ قَولَهُ: «وكان أصحابُنا الحَنابِلَةُ يُريدونَ مِنِّي هِجْرَانَ جَمَاعَةٍ مِنَ العُلَمَاءِ، وكانَ يَحْرِمُني عِلْمًا نافعًا!».

فعلَّقَ عليه بقولِهِ : «كانوا يَنْهَوْنَهُ عن مُجالَسَةِ المُعْتَزِلَةِ ويَأْبَى، حتَّى وَقَعَ في حبائلِهِم، وتجسَّر على تأويلِ النُّصوصِ، نسأل اللهَ السَّلامَةَ!»[٦].

أنْتَ في النَّاسِ تُقاسُ بالَّذي اخْتَرْتَ خَليلا
فاصْحَبْ الأَخْيارَ تَعْلُ وَتَنَلْ ذِكْرًا جَميلا

---

(١) **التِّبْرُ** : ما كانَ منَ الذَّهَب غَيْرَ مَضْروبٍ ، أَوْ غير مصنوعٍ، واحده تِبْرَة .
(٢) «الإبانَة الصُّغْرَى» لابن بطَّة (ص ١٣٢).
(٣) **الغوائل** : الدَّواهي والشُّرور ، مُفْرَدها غائلةٌ.
(٤) **حَطَّ** : نَزَلَ.
(٥) «سيَرْ أعْلامِ النُّبلاء» (٤ / ٥٩).
(٦) المرجع السَّابق (١٩/ ٤٤٧).

صُحْبَةُ الخَامِلِ (١) تَكْسُو مَنْ يُواخِيهِ خُمُولاً (٢)

وأمَّا الحَريصُ على الدنيا فصُحْبَتُهُ عَناء، وفِراقُهُ غناء، ومُداراتُهُ طريقٌ للسَّلامَة.

قال اللهُ - سُبْحانه وتعالى -: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** (٢٩) ﴾ [النَّجْم: ٢٩].

فالحريصُ على الدُّنيا يُورِدُكَ المهالكَ، ويُوقِعُكَ في المعاطِبِ، فإذا كانَ لكَ من الدُّنيا نصيبٌ نَازَعَكَ عليه؛ لأنَّهُ لم يُصاحِبْكَ إلاَّ للدُّنيا، فإنْ وَجَدَ مَثْلَهُ فَتَشاكَلا، كَانتْ حيَاتُهُما كالأنعامِ، وليسَ لنا مَثَلُ السَّوْءِ، كالَّذي روى الحافِظُ ابنُ عساكِر في تاريخه: أنَّ أحْمدَ بن عمَّارٍ الأَسَديَّ قال: « خَرَجْنَا مع المُعَلِّمِ في جِنَازَة، ومعه جماعة منْ أصْحابه، فقال: انظروا إلى هذه الكلاب، ما أَحْسَنَ أخلاقَ بَعْضِها مع بَعْضٍ!. قال: ثُمَّ عُدْنا منَ الجِنازَةِ، وَقَدْ طُرِحَتْ جيفَةٌ، وتِلْكَ الكلابُ مُجتَمِعَةٌ عليها، وهي تُهارِش بَعْضُها مع بعضٍ، ويَخْطَفُ هذا من هذا، وَيَعْوي عليه، وهي تتَقاتلُ على تِلْكَ الجِيفَةِ، فالتَفتَ المُعَلِّمُ إلى أصْحابه، فقال لهم: قد رَأَيْتم - يا أصْحابَنا - متى لم تَكنِ الدُّنْيا بيْنَكُمْ فأنْتُمْ إخْوانٌ، ومَتى ما وَقَعَتِ الدُّنيا بينكم تهارشتم عليها تَهَارُشَ الكلابِ على الجِيفَةِ! » (٣).

عَاشِرْ أَخَا الدِّينِ؛ كَي تَحْظَى بصُحْبَتِهِ فالطَّبْعُ مُكْتَسَبٌ مِنْ كُلِّ مَصْحُوبِ
كالرِّيحِ آخِذَةٌ مِمَّا تَمُرُّ بِهِ نَتْنًا مِنَ النَّتْنِ، أو طِيبًا مِنَ الطِّيبِ

وقد جَمَعَ المَاوَرْدِيُّ - رحمَهُ اللهُ - الخِصالَ المعْتَبَرَةَ في إِخاءِ الإِخوانِ، وأوجزها خَيْرَ إِيجازٍ، كالتالي:

---

(١) **الخامل**: السَّاقط الذي لا نَباهَةَ له.
(٢) « نَفْح الطِّيب » للمقري (٤/ ٦٧).
(٣) « تهذيب ابن عساكر » (١/ ٤١٤).

الخَصْلةُ الأولى – عَقْلٌ موفورٌ يهدي إلى مراشد الأمورِ.

الخَصْلة الثَّانية – الدِّين الواقف بصاحبِهِ على الخيرات.

الخَصْلة الثالثة – أن يكونَ محمودَ الأخلاقِ، مرضيَّ الأفْعالِ، مُؤثرًا للخيرِ آمرًا به، كارِهًا للشرِّ ناهيًا عنهُ.

الخَصْلَة الرَّابِعَة – أن يكونَ مِنْ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما مَيْلٌ لِصاحِبِهِ، ورغبةٌ في مُؤاخاتِهِ[١].

عَلَيْكَ بِأرباب الصُّدُورِ ؛ فَمَنْ غَدَا   جَلِيسًا لأَرْبَابِ الصُّدورِ تَصَدَّرا

وإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ ساقِطٍ   فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلاكَ وتُحْقَرا.

(١) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٦٧، ١٦٨).

الألفة

التَّوافق والتَّناسُب والتَّشاكُل في الأُمورِ الظاهِرَةِ والباطنَةِ بيْنَ المُتحابِّينَ مِنْ أَعْظَمِ أسْبابِ المودَّةِ والمحبَّةِ، فإذا لم يتشاكلا في الحالِ حصلَ الفراقُ، ما مِنْ ذَلكَ بُدٌّ (١).

وتُعَرَّفُ الأُلْفَةُ بأنَّها: اجتماعٌ مع التئامٍ ومحبَّةٍ (٢).

وقيل: هي ميلانُ القَلْبِ إلى المَألوفِ (٣).

والأُلْفَةُ من الأُصُولِ المهمَّةِ الَّتي يَصْلُحُ بها حالُ المرءِ في معاشِهِ ومَعَادِهِ، فهي مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ الله على العَبْدِ.

قالَ اللهُ - سبحانه وتعالى -: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حقًّا إنَّها نعمة، وأيُّ نعمةٍ؟! فَقَدْ كانَت العربُ جميعًا قَبْلَ الإسلامِ في حُروبٍ وعَداوَاتٍ؛ فالأَوْسُ والخَزْرَجُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حروبٌ دامَتْ مائةً وعِشرينَ سَنَةً قَبْلَ الهجرةِ، والعرَبُ في حُروبٍ وغاراتٍ لا تكادُ تَهْدَأُ، وكذلك جميعُ الأُمَمِ التي دعاها الإسلامُ، ولَقَدْ حاولَ حكماؤُهم وأُولو الرَّأيِ منْهم التَّأليفَ بَيْنَهُمْ بأَفَانين من الدعايةِ: مِنْ خَطَابَةٍ، وشِعْرٍ، وجَاهٍ، دونَ نتيجةٍ تُذْكَرُ، حَتَّى ألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِهم بالإسلامِ، فصاروا بذلكَ التَّأليف بمنزِلَةِ الإخوانِ، فأيُّ نعمةٍ أعظَمُ مِنْ هَذِهِ، إذْ أَصْبَحوا بتأليفِ الله إخوانًا مُتصادقينَ؟!.

---

(١) قد يحصل التَّنافر في بداية الأمر، وفي نهاية الأمر تكون الأُلْفةُ مكتسبةً كما سيأتي في كلام الحافظ ابن حجر.

(٢) انظر «موسوعة نظرة النَّعيم» (٢/ ٤٩٥).

(٣) «كشاف اصطلاحات الفنون» (١/ ١١٤)، و«التوقيف على مُهمَّات التعاريف» للمناوي (ص٦٠).

وقَالَ اللهُ – سُبحانه وتعالى –: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٣].

حقًّا إنَّ نِعَمَ الله علينا لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، ومَا مِنْ شَكٍّ أنَّ الله – سبحانه وتعالى – إذا قَارَبَ بَيْنَ القُلوب، لم يزحزحها شيْءٌ، كما لا يَسْتَطيعُ أحدٌ أنْ يُؤلِّفَ بين قلبين مُتنافرين إلاَّ أنْ يَشاءَ الله.

فعن عائشة – رضي الله عنها – قالتْ: سَمِعْتُ النَّبيَّ – صلى الله عليه وسلم – يقولُ: «**الأرواحُ جُنودٌ مُجنَّدَةٌ** (١)، **فما تعارفَ** (٢) **منها ائْتَلَفَ** (٣)، **ومَا تَنَاكَرَ** (٤) **منها اخْتَلَفَ**(٥)» (٦).

قال ابنُ حبَّانَ – يرحمه اللهُ –: «سَبَبُ ائتلاف النَّاسِ وافتراقهم – بعْدَ قَضاءِ الله السَّابِقِ – هو تَعارُفُ الرُّوحيْنِ وتَنَاكرهما، فإذا تَعَارَفَ الرُّوحان وُجِدَتِ الأُلْفَةُ بينَ نفْسيْهما، وإذا تَنَاكَرَ الرُّوحانِ وُجِدَتِ الفُرْقَةُ بَيْنَ جسميهما» (٧).

وقال الإمامُ البَغويُّ – يرحمه اللهُ –: «في الحديثِ بيانُ أنَّ الأرواحَ خُلقَتْ قبل الأجْساد، وأنَّها مخلوقَةٌ على الائتلاف والاختلاف: كالجُنود المُجنَّدَة إذا تقابلت وتواجَهتْ، وذلك على ما جعلها اللهُ عليه منَ السَّعادَة والشَّقاوَة، ثُمَّ الأجسادِ التي فيها الأرواح تلتقي في الدُّنيا، فتأتلفُ وتَخْتَلفُ على حَسْبِ ما جُعلَتْ عليه منَ التَّشاكُلِ والتَّناكُرِ في بَدْءِ الخَلْقِ، فَتَرى البَرَّ الخَيِّرَ يُحِبُّ مِثْلَهُ، والفَاجرَ يَأْلَفُ شَكْلَهُ، ويَنْفُرُ كُلٌّ مِنْ ضِدِّه» (٨).

(١) **جُنودٌ مُجنَّدَةٌ**: جُمُوعٌ مجتمعةٌ، وأَنواعٌ مُخْتلفةٌ، والأرواحُ جمع رُوحٍ، وهو الذي يقوم به الجَسد، وتكون به الحياة.
(٢) **تعارف**: توافقت صفاتها، وتناسبت في أخلاقها.
(٣) **ائتلف**: من الأُلْفة، وهي المحبَّة والمودَّة.
(٤) **تناكر**: تنافرت في طبائعها.
(٥) **اختلف**: تباعد.
(٦) رواه البخاريُّ (٣٣٣٦) واللفظ له، ورواه مسلمٌ (٢٦٣٨) من رواية أبي هريرة – رضي الله عنه –.
(٧) «روضة العقلاء» (ص١٧٩).
(٨) «شرح السُّنَّة» للبغوي (١٣/ ٥٧).

وقال أبو حامدٍ - يرحَمُهُ اللّهُ - : «ائتلافُ القلوبِ أَمْرٌ غامضٌ؛ فإنَّهُ قدْ تستحْكِمُ المودَّةُ بَيْنَ شَخْصيْنِ منْ غَيْرِ ملاحةٍ تُوجِبُ الأُلْفَةَ والموافَقَةَ، فإنَّ شبْهَ الشَّيْءِ يَنْجَذِبُ إليه بالطَّبعِ، والأشباه الباطنة خفيَّة، وبها أسبابٌ دقيقةٌ، ليسَ في قُوَّة البَشَرِ الاطِّلاعُ عليها، عَبَّرَ رسولُ الله - ﷺ - عنْ ذَلكَ بقوله: «**الأَرْوَاحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائتلَفَ، ومَا تَنَاكرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**» [١].

وقال الحافِظُ ابن حجرٍ - يرحمه اللّهُ - مُعَلِّقًا على الحديثِ السَّابِقِ: قالَ الخَطَّابيُّ: «يُحتَمَل أنْ يكونَ إشارةً إلى معنى التَّشاكُلِ في الخَيْرِ والشَّرِّ والصَّلاحِ والفسادِ، وأنَّ الخَيِّرَ منَ النَّاسِ يَحِنُّ[٢] إلى شكْله، والشِّريرُ نظير ذلك يميلُ إلى نظيرِه؛ فتعارف الأرواح يَقَعُ بحَسب الطِّباعِ التي جُبِلَتْ عليها منْ خَيْرٍ وشرٍّ، فإذا اتَّفقَتْ تعارَفَتْ، وإذَا اخْتَلَفَتْ تَنَاكَرَتْ».

قلتُ - أي ابن حجرٍ - : ولا يُنكر عليه أنَّ بَعْضَ المتَنَافِرينَ رُبَّما ائتَلفا؛ لأنَّهُ مَحْمُولٌ على مَبْدَأ التَّلاقي، فإنَّهُ يتعلَّقُ بأَصْلِ الخَلْقِ بغَيْرِ سبَبٍ، وأمَّا في ثنايا الحال فيكونُ مُكْتَسَبًا لِتَجَدُّدِ وَصْفٍ يَقْتَضي الأُلْفَةَ بعْدَ النَّظْرَة: كإيمانِ الكَافِرِ، وإحْسان المسيء.

وقوله: «**جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ**» أي: أجْناسٌ مُجَنَّسَةٌ، أو جُمُوعٌ مُجمَّعة.

قال ابنُ الجوزيِّ - يرحمْهُ الله -: «ويُسْتفادُ من هذا الحديث أنَّ الإنسانَ إذا وَجَد منْ نَفْسِهِ نَفْرَةً ممَّنْ له فضيلَةٌ أو صلاحٌ؛ فيَنْبَغي أن يبحثَ عن المقتَضي لذلك؛ ليسْعى في إزالتِهِ، حتَّى يتخلَّصَ مِنَ الوَصْفِ المَذْمومِ، وكذلك القولُ في عكسه» [٣].

---

(١) «إحياء عُلوم الدِّين» (ص٩٣٢) بتصرُّفٍ.

(٢) **يَحِنُّ**: يشتاق ويتوق.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٤٢٦) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

وما مِنْ شَكٍّ أنَّ الأُخُوَّةَ الصافيَةَ لا يَنْتَظِمُ عِقْدُها بينَ شخصين، إلاَّ أنْ يكونَ بينَ رُوْحَيْهِما تَقَارُب، وفي آدابهما تشَابُه، فإذا لم يكنِ الأمرُ كذلك انفرَطَ العِقْدُ، **كما قيل:**

وما يَلْبَثُ الإِخْوانُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا إذَا لَمْ يُؤَلَّفْ رُوحُ شَكْلٍ إلى شَكْلِ

وقال الآخر:

يَزِينُ الفَتَى في قَومِهِ ويَشِينُهُ وفي غَيْرِهِمْ أَخْدَانُهُ (١) ومَدَاخِلُهْ
لِكُلِّ امرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ وكُلُّ امْرِئٍ يَهْوَى إلى مَنْ يُشَاكِلُهْ (٢)

وقال مُجاهد: «رأى ابنُ عبَّاسٍ – رضي الله عنهما – رجلاً، فقال: إنَّ هذا لَيُحِبُّني.

قالوا: وما عِلْمُكَ؟!. قال: إنِّي لأُحِبُّهُ، والأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تعَارَفَ منْها ائتلَفَ، وما تَنَاكرَ مِنْها اخْتَلَفَ»(٣).

وكان مالكُ بْنُ دينارٍ يقول: «لا يتَّفقُ اثنانِ في عشْرَةٍ إلاَّ وفي أحدهما وَصْفٌ من الآخَرِ، وإنَّ أجْنَاسَ النَّاسِ كأجْناسِ الطَّيْرِ، ولا يَتَّفِقُ نوعانِ مِنَ الطَّيْرِ في الطَّيرانِ إلاَّ وبَيْنَهُما مُنَاسَبَةٌ».

وَرَأَى يَوْمًا غُرابًا معَ حَمَامَةٍ، فقَالَ مُتَعَجِّبًا: «اتَّفَقَا وليْسا مِنْ شَكْلٍ واحدٍ!» ثُمَّ طارا، فإذا هُما أعْرَجَان، فقال: «مِنْ ها هُنا اتَّفَقَا» (٤).

وقال – رحمه اللهُ – لخَتَنِه (٥): «يا مُغِيرةُ، انظُرْ كُلَّ أَخٍ لكَ، وصَاحِبٍ

(١) **أخْدان**: جمع خِدْنٍ، وهو الصَّديق.
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٨٠).
(٣) المرجع السَّابق (ص١٨٠).
(٤) «بهجَة المجالس» للأثريِّ (٢/ ١١٠).
(٥) **الخَتَنُ – بفَتْحَتَيْن** –: واحد الأَخْتان، وهو عِندَ العربِ كُلُّ مَنْ كان قِبَلِ المرأة مثل: الأب، والأخ، وعند العامَّة زوج البنت.

لكَ، وصديقٍ لك لا تَسْتَفيدُ في دينِكَ مِنْهُ خيراً، فانبُذْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ؛ فإنَّما ذلك لك عَدُوٌّ.

يا مُغيرَةُ، النَّاسُ أشكالٌ: الحَمَامُ معَ الحمامِ، والغُرابُ معَ الغُرابِ، والصَّعْوُ معَ الصَّعْوِ(١)، وكُلٌّ معَ شَكْلِه»(٢).

قال الشَّاعِر:

وفي السَّماءِ طُيورٌ اسمُها البُقْعُ(٣) إنَّ الطُّيورَ عَلَى أشْكالِها تَقَعُ.

ويُؤْخَذُ مِنْ هذا أَنَّكَ مَتى وَجَدْتَ صُحْبَةً بَيْنَ بَخيلٍ وكريمٍ، أو جبانٍ وشجاعٍ، أو غَبيٍّ وذكيٍّ، أو مُهْتَدٍ ومُبْتَدِعٍ، أو أَحْمَقَ وعاقِلٍ – فاعْلَمْ أنَّ الصُّحْبَةَ لَمْ تَبْلُغْ أنْ تَكونَ صداقَةً بالِغَةً.

قال الطَّائيُّ:

عِصَابَةٌ جَاوَرَتْ آدابُهُمْ أَدَبي فَهُمْ – وإِنْ فُرِّقوا في الأرضِ – جِيراني
أَرْواحُنا في مكانٍ، وَغَدَتْ أَبْدَانُنا بِشامٍ، أوْ خُراسانِ (٤)

وقال آخرُ:

تَعَارُفُ أَرْواحِ الرِّجالِ إذا التَقَوْا فَمِنْهُمْ عَدُوٌّ يُتَّقَى وخليلُ
كذاك أُمُورُ النَّاسِ، والنَّاسُ مِنْهُم خَفيفٌ – إذا صاحَبْتَهُ – وثَقيلُ (٥)

وعليهِ فالأُلفةُ قاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ من قواعِدِ الأُخُوَّةِ، ولها أَهَمِّيَّتُها، عُنِيَ بها العلماءُ، وشَغَلتِ الأُدَباءَ.

---

(١) **الصَّعْوُ**: جمْعُ صَعْوَةٍ، وهو طائرٌ أَصْغر من العُصفورِ، ويُجْمَع – أيضًا – على صِعَاءٍ.
(٢) «المنتقى من مكارمِ الأَخْلاق» (ص١٥٩).
(٣) **البُقْع**: جمع بَقْعَاءَ، وهي التي في لونها سَوَادٌ وبياضٌ.
(٤) «الصَّداقة بين العلماء» لمحمَّد بن إبراهيمَ الحَمَد (ص٥٤).
(٥) «ديوان طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ» (ص١٢١) بتحقيق د/ علي الجندي.

قال الإمامُ الماوَرْديُّ – يرحمُهُ اللهُ – : « وإذا كَانَ التَّجانُسُ والتَّشاكُلُ من قواعِدِ الأُخُوَّةِ، وأسباب المودَّةِ، كانَ وُفُورُ العَقْلِ وظُهُورُ الفَضْلِ يقْتَضي مِنْ حَالِ صاحِبِهِ قلَّةَ إِخْوانهِ؛ لأنَّهُ يَرُومُ مِثْلَهُ، ويَطْلُبُ شَكْلَهُ، وأمْثَالُهُ مِنْ ذَوي العَقْلِ والفَضْلِ أقَلُّ مِنْ أضداده مِنْ ذوي الحُمْقِ والنَّقْصِ؛ لأنَّ الخَيَارَ في كُلِّ شيءٍ هو الأَقَلُّ؛ فلذلكَ قلَّ وُفُورُ العَقْلِ والفَضْلِ، وقد قال الله – سُبْحانَهُ وتعالى –: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ [الحُجُرات: ٤]، فقلَّ بهذا التَّعْليل إِخوانُ أهلِ الفَضْلِ لقِلَّتهم، وكَثُرَ إِخوانُ ذوي النَّقْصِ والجَهْلِ لكَثْرَتهم، **وقد قال الشَّاعرُ في ذلك** :

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ ... فَأَكْثَرُهُمْ شَكْلاً أَقَلُّهُمْ عَقْلا
وكُلُّ أُنَاسٍ آلِفُونَ لِشَكْلِهِمْ ... فَأَكْثَرُهُمْ عَقْلاً أَقَلُّهُمْ شَكْلا
لأَنَّ كَثِيرَ العَقْلِ لَسْتَ بواجِدٍ ... لَهُ في طَرِيقٍ – حينَ يَسْلُكُهُ – مِثْلا
وكُلُّ سَفِيهٍ طائشٍ إِنْ فَقَدْتَهُ ... وَجَدْتَ لَهُ في كُلِّ ناحِيَةٍ عِدْلا (١) »(٢)

وقال الإمامُ ابنُ القيِّمِ – يرحمُهُ اللهُ – : « وأنْتَ إذا تَأَمَّلتَ الوجودَ، لا تكاد تجدُ اثنين يتحابَّان إلاَّ وبينَهُمَا مُشاكَلَةٌ أو اتِّفاقٌ في فعلٍ، أو حالٍ، أو مَقصدٍ، فإنْ تبايَنَت المقاصدُ، والأَوصاف، والأفعال، والطَّرائق، لم يكنْ هناك إلاَّ النَّفْرَةُ والبُعْدُ بينَ القُلُوبِ، ويَكْفي في هَذَا الحديث الصحيح عن رسول الله – ﷺ –: « **مَثَلُ المؤْمنينَ في توادِّهِم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ إِذا اشْتَكى مِنْهُ عُضوٌ، تَداعى لهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى** » (٣) » (٤).

---

(١) **العدْل** : المثْل .
(٢) « أَدَبُ الدُّنيا والدِّين » (ص١٧١) .
(٣) رواه البخاريُّ (٦٠١١) ، ومسلم (٦٦) عن النُّعْمانِ بن بَشيرٍ .
(٤) « روضة المُحبِّينَ » (ص٥٤) .

وقال - رحمه اللهُ - : «إذا كانت المَحبَّةُ بالمُشاكَلَةِ والمناسَبَةِ ثَبتَتْ وتَمكَّنَتْ، ولَمْ يُزِلْها إلاَّ مانِعٌ أقْوَى مِنَ السَّبَبِ، وإذا لم تكنْ بالمُشاكلة، فإنَّما هي مَحَبَّةٌ لِغَرَضٍ مِنَ الأَغْراضِ، وتزولُ عِنْدَ انقضائِه وتَضْمَحِلُّ، فَمَنْ أَحَبَّكَ لأمرٍ ولَّى عِنْدَ انقِضائِه؛ فداعي المحبَّة وباعِثها إنْ كان غرضًا للمحبِّ لَمْ يَكنْ لمحبَّتِه بَقَاءٌ»(١).

ومِنَ اللَّطائِفِ:

أنَّ التَّشاكُلَ والتَّناسُبَ كما يكونُ بينَ الأُخوَةِ يكونُ في الزَّواجِ، فَمِنْ نِعَمِ اللهِ على المرءِ أنْ تَكونَ لهُ زَوجَةٌ تُشاكِله، فإذا حصَلَتِ المشاكَلَةُ حَصَلَ الوِفاقُ، وإنْ لَمْ يَحْصُلْ التَّشاكُل حَلَّ مَحَلَّهُ الشِّقَاقُ الذي رُبَّما انتهى بالفِراقِ.

ومِنْ لطيفِ ما يُذْكَرُ:

«أنَّ عَزَّةَ دَخَلَتْ على الحَجَّاجِ، فقالَ لها: يا عَزَّةُ، واللهِ، ما أنت كما قالَ فيك كُثَيِّرٌ!. فقالتْ: أيُّها الأميرُ، إنَّهُ لمْ يَراني بالعينِ الَّتي رأَيْتَني بها» (٢).

فَمَا تُبْصِرُ العَيْنَانِ والقَلْبُ آلِفٌ ... ولا القَلْبُ والعَيْنانِ مُنْطَبِقَانِ
وَلَكِنْ هُما رُوْحَانِ يَعْرِضُ ذا لِذا ... فَيَعْرِفُ هَذا ذا، فَيَلْتَقِيانِ (٣)

قلتُ: ولهذه الحكْمَة البالغة شُرِعَ للرَّجُلِ أنْ يَنْظُرَ للمرأَةِ، إذا أراد خِطْبَتها؛ فرُبَّما وَقَعَتْ الأُلْفَةُ، ورُبَّما لَمْ تَقَعِ البَتَّةَ.

كما قالَ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ - رحمه اللهُ - : «ولهذا شُرِعَ للخاطِبِ أنْ يَنْظُرَ إلى المَخْطوبة؛ فإنَّهُ إذا شاهدَ حُسْنَها وجَمَالَها، كانَ ذلكَ أَدْعى إلى حُصولِ المحبَّة والأُلْفَةِ بيْنَهُما، كما أشارَ إليه النَّبيُّ - ﷺ - في قولِهِ: «**إذا أرادَ أحَدُكُم خِطْبَةَ**

---

(١) «روضة المحبِّين» (ص٥١).
(٢) المرجع السابق (ص٤٩).
(٣) «روضة العُقلاء» (ص١٨٠).

امرأةٍ، فَلْيَنْظُرْ إلى ما يدعوهُ إلى نِكَاحِها؛ فإنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤدَمَ بَينَهُما» (١).

أي: يُلائم ويُوافق ويُصْلِح، ومِنْهُ الإِدَامُ الذي يَصلُحُ به الخُبْز، ورُبَّما لمْ تَقَعِ البَتَّةَ؛ فإنَّ التَّناسُبَ الَّذي بَيْنَ الأَرْواحِ مِنْ أَقْوى أسباب المحبَّةِ، فكلُّ امرئٍ يَصْبُو إلى مَنْ يُناسِبَهُ» (٢).

إنْ كُنْتَ حُلْتَ (٣) وبي اسْتَبْدَلْتَ مُطَّرِحًا ... وُدًّا، فَلَمْ تأْتِ مَكْروهًا ولا بِدَعًا (٤)

فَكُلُّ طَيْرٍ إلى الأشْكالِ مَوْقِعُها ... والفَرْعُ يَجْري إلى الأَعْراقِ مُنْتَزِعَا (٥)

ولا يقفُ الأمرُ عِنْدَ هذا، بَلْ إنَّ الأُلْفَةَ قاعدَةٌ ذهبيَّةٌ اسْتَخْدَمَها السَّلَفُ لِكَشْفِ أَهْلِ البِدَعِ، فإذا خفي على أَحَدِهِمْ أَمْرُ رَجُلٍ نَظَرَ في جُلسائِه، فإنْ كانوا أهلَ سُنَّةٍ فهو على مَنْهَجِهِم، وإنْ كانوا غَيْرَ ذَلِكَ أَلْحَقوهُ بِهِم.

قال الإمامُ أحمد - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَمَنْ خَفِيَ عَلَيْنا حالُهُ لَمْ تَخْفَ عَلَيْنا أُلْفَتُهُ».

وقال الأوزاعيُّ - رحمه اللهُ -: «مَنْ سَتَرَ عنَّا بدعَتَهُ لمْ تَخْفَ علينا أُلفَتُهُ» (٦).

وقال مُعاذ بن معاذٍ - رحِمَهُ اللهُ -: «الرَّجُلُ وإنْ كتَمَ رَأْيَهُ لَمْ يَخْفَ ذاكَ في ابنِهِ، ولا صديقِهِ، ولا في جليسِهِ» (٧).

ومن طريفِ ما يُذْكَرُ - في الأُلْفَةِ -: أنّ سُفيانَ الثوريّ - رحمه الله - لما قدم البصرة، جعل ينظر إلى أمر الربيع - يعني ابن صبيح - وقدره عندَ النّاسِ،

---

(١) مأخوذٌ من حديثين، روى الأوَّلُ منهما أبو داود في «النكاح» باب (١٨)، وروى الثاني النَّسَائيُّ في «النِّكاح» باب (٩٠).

(٢) «روضة المحبِّين» (ص١٨٢).

(٣) **حالَ عن العَهْد**: انْقَلَبَ.

(٤) **يقول**: أيُّها المُستَبدلُ بي غيري، لا عَيْبَ عليكَ، إنَّما أنْتَ تَبيعُ مَنْ تُجالِسه.

(٥) «روضة العُقلاء» (ص١٨٢).

(٦) «الإبانة» لابن بطه (٢/ ٤٧٩).

(٧) المرجع السابق (٢/ ٤٧٩).

سألَ: أيّ شيء مذْهَبه؟. قالوا: ما مَذْهَبه إلى السُّنَّة. قال: من بطانته؟. قالوا: أهل القدر. قال: هو قدريّ»[١].

وقال الإمامُ أحمد - رحمه الله -: «إذا سلّم الرَّجلُ على مُبْتَدعٍ فهو يُحبُّه»[٢].

والمقصودُ أنَّ المَحبَّةَ تَسْتَدْعي مُشاكَلةً ومُناسَبَةً، كما قال بعضُهُم لأخٍ له: «صادفتُ فيكَ جَوْهَرَ نفْسي؛ فانْبَعَثَتْ نحوكَ، وانْقادَتْ إِليْكَ، وإنَّما هَوِيتُ نفسي».

وهَذا صَحِيحٌ مِنْ وجهٍ، فإنَّ المناسَبَةَ علَّة الضَّمِّ شَرْعًا وقدراً، وَشَاهدُ هَذَا بالاعتبارِ أنَّ أحبَّ الأَغْذيَة إلى الحَيَوانِ ما كان أشبَهَ بجَوْهَرِ بَدَنِه، وأَكْثَرَ مُنَاسَبةً لهُ، وكُلَّما قَوِيَتِ المناسَبَةُ بَيْنَ الغاذي والغذاء كانَ مَيْلُ النَّفْسِ إليه أكثَر، وكُلَّما بَعُدَتِ المناسَبَة حَصَلَتْ النَّفْرَةُ عَنْهُ، ولا رَيْبَ أنَّ هذا قدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ الحُسْنِ والجمالِ، ولهذا كانتِ النُّفوسُ الشَّريفةُ الزَّكيَّةُ العُلْويَّةُ تعشقُ صفات الكمال بالذَّات، فأحبُّ شيءٍ إِلَيْها العلمُ، والشَّجاعَة، والعفَّةُ، والجودُ، والإحْسانُ، والصَّبْرُ، والثَّباتُ لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلافِ النَّفْسِ اللَّئيمة الدَّنيَّة؛ فإنَّها بمَعْزلٍ عن محبَّةِ هذه الأوصاف، وكثيرٌ من النَّاسِ يَحملُهُ على الجودِ والإحسانِ فَرْطُ عشقه ومحبَّته لهُ، واللَّذَّة التي يجدها في بذلِه، كما قال المأمون: «لقد حُبِّبَ إليَّ العَفْوُ، حتَّى خَشيتُ ألاَّ أُؤْجَرَ عليه».

وقيلَ للإمامِ أَحْمَدَ بْن حَنْبَلٍ - رحمه الله -: «تعلَّمتَ هذا العِلْمَ لله؟». قال: «أمَّا لله فَعَزيزٌ، ولكنْ شيءٌ حُبِّبَ إليَّ ففعَلْتُهُ».

وقالَ آخرُ: «إنِّي لأَفْرحُ بالعَطَاءِ وألْتَذُّ به أكثَرَ وأَعْظَمَ ممَّا يفرحُ الآخِذُ بما يأَخُذُ منِّي».

(١) المرجع السابق (٢/٤٥٣).
(٢) «طبقات الحنابلة» (١/١٩٦).

وفي هَذَا قيلَ في مَدْحِ بَعْضِ الكُرَمَاءِ مِنْ أبْيات :

وَتَـأْخُـــــذُهُ عِـنْـدَ المكـارِمِ هِـزَّةٌ (١) كما اهتزَّ عِنْدَ البَارِحِ(٢) الغُصْنُ الرَّطْبُ

وقال شاعِرُ الحَمَاسَةِ :

تَرَاهُ – إِذا مـا جِـئْـتَـهُ – مُـتَـهَـلِّلاً كَـأَنَّكَ تُعْطِيـهِ الَّذي أَنْتَ سَـائِلُهْ (٣)

أخي، انظُرْ إلى ما سَطَّرَتْهُ يَرَاعةُ (٤) الإمام ابنُ القَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –، ثُمَّ انْظُرْ إِلَى واقعكَ الذي تَعيش فيـه؛ فَكَمْ مِنَ الأَصْدقَاءِ تحتاجُ إلى مُداراَتِهِمْ؛ لأنَّهم لَيْسوا مِنْ شَكْلِكَ، وبِئْسَ الأَخُ أخٌ تَحْتَاج إلى مُداراتِهِ، كما قال الإمامُ الشَّافعيُّ – يرحمه الله – .

وكَمْ مِنْ أَخٍ حَالُهُ معكَ كَمَا قالَ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ :

إِذا كَـــــانَ وُدُّ المَرْءِ لَيْسَ بِزائِدٍ على مَرْحَبًا، أو كيفَ أَنْتَ وحالُكا؟
ولَمْ يكُ إِلاَّ كَـاشِـرًا أَوْ مُـحَـدِّثًا فَـــأُفٍّ لِـوُدٍّ لَيْسَ إِلاَّ كَـــذَلِكا
لسـانُكَ مَـعْـسُـولٌ ، ونَفْـسُكَ بَشَّـةٌ وَعِنْدَ الثُّرَيَّا (٥) مِنْ صَدِيقِكَ مالُكا
وَأَنْتَ إِذا همَّتْ يَمـــينُكَ مَـــرَّةً لتَفْعَلَ خَيْرًا ، قَاتَلَتْهَا شِمَالُكا (٦)

(١) **الهِزَّة – بكسر الهاء –** : النَّشاط والارتياح .
(٢) **البارِح** : هي رياحٌ حَارَّةٌ صيفيَّة .
(٣) «روضة المحبِّين» (ص٥٠ ، ٥١) .
(٤) **اليَرَاعَة – بالفتح –** : واحدَة اليَرَاع ، وهي القَصَبَة (نَبْتة) ، والمقصودُ بها هنا القلم، فقد كانوا يَبْرونَ القصبَة ، ويصنَعونَ منها قلماً.
(٥) **الثُّرَيَّا** : سبعة كواكب منضمَّةٌ بَعْضُها إلى بَعْضٍ ، تُشْبِهُ العُنقودَ .
(٦) «روضة العُقلاء» (ص١٠٥) .

التَّعـارُف

التَّعارُف يُورِثُ حُبَّ النَّاسِ لكَ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَ شيئًا اطْمَأنَّ إليه .

وهو أن تتعارف على النَّاسِ بحَسب الدِّينِ، والشُّعوبِ، والقبائلِ، فذلكَ مَدْعاةٌ للأُلْفَةِ والشَّفَقَةِ والمحبَّةِ، لا إلى التَّنافُرِ والعَصَبيَّةِ (١) .

قال اللهُ – سبحانه وتعالى –: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

قال الشيخ الجزائريُّ – حفظه اللهُ – في تفسيرِ هذه الآية : « هذا نداءٌ، وهو آخرُ نداءَات اللهِ – تعالى – عبَادَهُ في هذه السُّورَة، وهو أَعَمُّ من النِّداءِ بعُنوانِ الإيمان، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ** ﴾ من آدمَ وحوَّاءَ باعتبارِ الأصْلِ، كَمَا أنَّ كُلَّ آدمي مخْلُوقٌ منْ أَبَوَيْنِ: أَحَدُهُما ذكَر، والآخَرُ أُنْثى .

﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ** ﴾ بُطُونًا وأَفْخاذًا وفَصائلَ، كُلُّ هذا لحكْمَةِ التَّعارُفِ، فلمْ يجعلكم كجِنْسِ الحيوان، لا يعرفُ الحيوان الآخر، ولكن جعَلَكُم شعوبًا، وقبائلَ، وعائلاتٍ وأُسرًا؛ لحِكْمَةِ التَّعَارف المقتضي للتّعَاون؛ إذ التعارف بينَ الأَفْرادِ ضروريٌّ لقيامِ مُجْتَمَعٍ صالحٍ سَعيدٍ .

فتَعارَفوا وتعاونوا، ولا تتَفرَّقوا لأجل التَّفاخُر بالأنْساب؛ فإنَّهُ لا قيمةَ للحَسَبِ، ولا للنَّسَبِ إذا كان المرءُ هابطًا في نَفْسه وَخُلُقه، وفَاسدًا في سلوكه .

﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ إنَّ الشَّرفَ والكمال فيما عليه الإنسان من زكاةِ رُوحه، وسلامةِ خُلُقه، وإصابَةِ رَأْيه، وكَثْرَةِ معارفه » (٢) .

---

(١) انظر « موسوعة نضرة النَّعيم » (٣ / ١٠٠٤) .

(٢) « أيسَر التفاسير لكلام العليِّ الكبير » (٤ / ٢٩٥) .

وعن أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قـال: قـال رسـولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسلامِ؛ إِذَا فَقِهوا**» (١).

ففي هذا الحديث دليلٌ على أنَّهُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الحَسَبِ والفِقْهِ في الدِّين، فقدْ استحقَّ الخيريَّة؛ وذلك لأنَّ الفِقْهَ في الدِّين يزيد في العقل والأدب، **كما قيل**:

يُعَدُّ رَفِيعُ القومِ مَنْ كانَ عاقِلاً وإِنْ لَمْ يكنْ في قَومِهِ بِنَسيبِ
وإِنْ حَلَّ عاشَ فيها بعَقْلِهِ ومَا عاقِلٌ في بَلْدَةٍ بِغَريبِ

وقدْ كانَ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – يَتَعارَفُ على مَنْ يَلْتَقي به، ويُنْزِلُهُ منزلته، فعلى جادَّةِ المثال: عنْدَما قَدِمَ وَفْدُ (٢) عَبْدِ القَيْسِ عليه – صلى الله عليه وسلم – سألهم: «**مَنِ القَوْمُ – أو مَنِ الوَفْدُ – ؟**». قالوا: ربيعَةُ. قال: «**مَرْحَبًا بالقومِ – أَوْ بالوَفْدِ – غَيْرَ خزَايا (٣)، ولا نَدامَى (٤)**» (٥).

قال الإمامُ ابن أبي جَمْرَةَ – رَحِمَهُ اللهُ – تَعْليقًا على قَوْلِهِ – صلى الله عليه وسلم – لِوَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ: «مَنِ القَوْمُ؟»: «فيهِ دليلُ استحباب سؤال القاصِد عَنْ نَفْسِهِ؛ ليُعْرَفَ فيُنزَلَ مَنزِلَتَهُ» (٦).

واعلمْ – أخي – أنَّ حِفْظَكَ لأسماءِ أصْحابِكَ وأَنْسابِهِم دليلٌ على تَقْديرِكَ لَهُمْ، فَلَيْسَ ثمَّةَ شيءٌ أجْمَل وأحبُّ للمرءِ مِنِ اسمِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨).

(٢) **الوَفْدُ**: الجماعَة، واحدُهُ وافدٌ، وجمعُ الوَفْد وُفُودٌ، وأوفادٌ.

(٣) **خزايا**: جمعُ خازٍ، والمَعْنَى: أنَّهُمْ أسْلَموا طَوْعًا من غَيْرِ حَرْبٍ أو سبْيٍ يُخْزيهِم ويَفْضَحهم. انظر «فتح الباري» (١/ ١٣١ – ١٣٢).

(٤) **نَدامى**: جمع ندمان، أي المنادم في اللَّهو. «فتح الباري» (١/ ١٣١ – ١٣٢).

(٥) «صحيح البخاريِّ» جزء من حديث رقم (٥٣).

(٦) انظر «فتح الباري» (١/ ١٣٢).

وقَدْ كانَ نَبيُّنا - ﷺ - يَحْفَظُ أسْماءَ أَصحابِهِ، وكُنَاهُمْ، وأسماءَ صِغارِهِم، وكُلِّ مَنْ تَعَارَفَ عليهِ في الجاهِلِيَّةِ، ورُبَّما عرف صِفَةَ الرَّجُلِ، وسَمِعَ به، فإذا التَقى به قال: أَأَنْتَ فلانٌ؟ فيكون الأمر كما ذكر [١].

فعن السَّائِبِ - رضي الله عنه - أنَّهُ قال: أَتَيتُ النَّبيَّ - ﷺ - فَجَعَلوا يُثْنونَ عليَّ ويذكرونني، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**أنا أَعْلَمُكُمْ بِهِ**» [٢].

وفي زماننا أصبَحَ التَّعارف بالوجوهِ، فإذا سَأَلْتَ أخاكَ: هَلْ تعرِفُ فُلانًا؟ قال لكَ: نَعَمْ، أعرفه من الوَجْهِ! بَلْ إنَّ بعضَهم يعيش مع جاره لبِضْعِ سَنَواتٍ، ولا يَعْرِف اسمَهُ، ولا اسمَ أولاده، وهذا لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ، فقَدْ سُئِلَ الشَّعبيُّ في الرَّجُلِ يَعْرِفُ وَجْهَ الرَّجل، ولا يعرف اسمَهُ، فقال: «تلك معرِفَةُ النَّوْكى [٣]» [٤].

ويُسْتَفادُ من التَّعارُفِ أنَّ صاحِبَ الأَصْلِ خَيْرُ مَنْ يُصْطَفى للصَّداقةِ بعدَ تَقْوى اللهِ، وحُسْنِ الخُلُقِ لتوارثهم الشَّهامةَ، والمروءةَ، والنَّجْدَةَ، وغَيْرَ ذلك من الصفات الحَميدة، والخلال المجيدة، ومِنْ أَمْثالِ العَربِ: «إذا غابَ عَنْكَ أَصْلُهُ، كانَتْ دلائلُ نِسْبَتِه فِعْلَهُ» [٥].

مَنْ لَمْ يكنْ عنصره طيبًا ... لم يخرج الطيب من فيه
كلّ امرئٍ يُشبهه فعله ... ويرشح الكوزُ بما فيه

وصاحِب الحسب تدومُ مودَّتُه، مهما حَصَلَ مِنَ الجَفاءِ.

فَعَنْ مُعاويةَ بن مُرَّةَ أنَّهُ قال: «نثرنا في المودَّة والإخاء، فلَمْ نجِدْ أثبَتَ مَودَّةً مِنْ ذي أَصْلٍ».

---

(١) فمن ذلك ما ذكَرَهُ ابن حجَرٍ في «الإصابة» (١/٥٥٦) أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال لزيد الخيلِ - رضي الله عنه -: «**ما وُصِفَ لي أَحَدٌ في الجاهليَّة، فرَأَيْتُهُ في الإسلامِ، إلاَّ رأَيْتُه دُونَ الصِّفَة غيْرَكَ**».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٠٤٩).

(٣) **النَّوكى**: جمعُ أَنْوَكَ، وهو الأحمق.

(٤) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص١٧١).

(٥) «كتاب الإخوان» (ص١٣٢).

وكانت العربُ لا تُنْكحُ إلاَّ مَنْ تَحققَ فيهم نَسَبُهُ، وعُرِفَ أَصْلُهُ وفَصْلُهُ، فَجَاءَ الإِسلامُ وأَقرَّ تلكَ الأَخْلاق.

فعنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لمالِها، ولِحَسَبِها، ولِجَمَالِها، ولدينِها؛ فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يداكَ**[1]»[2].

وقد كان السَّلَفُ يَخْتارونَ ذاتَ الحَسَبِ، وَيَعْتَبِرونَ ذلك من الإِحْسَانِ للأولادِ، ومِنْ طَريفِ ما يُذْكَر أنَّ أبا الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيَّ - رحمهُ اللهُ - قال لِبَنيه: «قَدْ أَحْسَنْتُ إِليكم صِغَاراً وكباراً، وقَبْلَ أنْ تُولَدوا». قالوا: «وكيفَ أحْسَنْتَ إِلينا قَبْلَ أنْ نُولَد؟!». قال: «اخْتَرْتُ لكم مِنَ الأُمَّهاتِ مَنْ لا تُسَبُّونَ بها»[3].

قال الرِّياشي:

فَأَوَّلُ إِحْسَاني إِلَيْكُمْ تَخَيُّري ... لِمَاجِدَةِ الأَعْراقِ، بادٍ عفافُها[4]

وقال آخرُ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ في منزِلِ المَرْءِ حُرَّةٌ ... تُدَبِّرُهُ[5]، ضَاعَتْ مَصالِحُ دَارِهِ
فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَخْتَرْ لِنَفْسِكَ حُرَّةً ... عَلَيْكَ بِبَيْتِ الجُودِ، خُذْ مِنْ خِيارِهِ
وَإِيَّاكَ وَالبَيْتَ الدَّنِيء[6]؛ فَرُبَّما ... تُعارُ بِطولٍ في الزَّمانِ بِعَارِهِ
ففيهنَّ مَنْ تَأتي الفَتَى وهو مُعْسِرٌ ... فَيُصْبِحُ كُلُّ الخَيْرِ في وَسْطِ دَارِهِ

---

(١) **تَرِبَ الشَّيْءُ**: أَصابَهُ التُّراب، وبابه فَرِحَ، وتَرِبَ الرَّجُلُ: أي افتَقَرَ، كَأنه لَصِقَ بالتُّراب، وتَرِبَتْ يَداكَ عبارة جرَتْ على ألسِنَةِ العرب، ولا يُريدون بها الدعاء على المخاطب، وإِنَّما المراد الحثُّ والتَّحْريض.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٥٨).

(٤) المرجع السَّابق (ص١٥٨).

(٥) **التَّدْبير في الأمر**: النَّظر إِلى ما تَئُولُ إِليه عاقِبَتُهُ.

(٦) **الدَّنِيء**: الخَسِيس الدُّون.

وفــيــهــنَّ مَنْ تَـأْتيــهِ وهو مُــيــسـر ... فَـيُـصْـبِـحُ لا يَـمْـلِكُ عُلَّيْقَ حِـمَـارِه
وفيهنَّ مَنْ – لا بَيَّضَ اللهُ عِرْضَها ! – ... إذا غابَ عَنْها الشَّخْصُ طلَّتْ لجارِه (١)

خلاصة القول :

أنَّ الحَسَبَ له قيمَتُهُ، والدِّينُ وحُسْنُ الخُلُقِ يَستُرانِ قَبيحَ النَّسَبِ، دلَّ على ذلكَ قَوْلُهُ ﷺ : «**فاظْفَرْ بِذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يَدَاكَ**» ، واللهُ أعلم .

إنْ كِـيـدَ مطرفُ الإِخـاءِ فـإِنَّنا ... نَغْـدُو ونَسْـري في إِخـاءٍ تالِدِ (٢)
أوْ يَخْـتَلفْ مـاءُ الغَـمـامِ فـمـاؤُنا ... عَـذْبٌ تَحَـدَّرَ مِنْ غَـمَـامٍ واحِـدِ
أَوْ يَخْـتَلِفْ نَسَبٌ يُؤَلِّفْ بَيْنَنا ... دِينٌ أَقَـمْنَاهُ مَـقَـامَ الوالِدِ .

---

(١) «المختار المفيد والبحر الفريد» للموسى (ص١٠٩) .
(٢) **تالِد** : قَديم .

التَّوسُّط في المحبَّةِ

لابُدَّ مِنَ التَّوسُّطِ في المحبَّة، فلا إفْراطَ ولا تفريط، والتَّوسُّط هنا هو بَذْلُ المجهود في النُّصْحِ والتَّناهي في رعاية ما بينهما من الحقِّ، فالإسرافُ في الحبِّ داعٍ إلى التَّقْصيرِ، وكذلك البُغْضُ؛ فَعَسى أن يصير الحبيبُ بغيضًا، والبغيضُ حبيبًا.

فعن عليِّ بْنِ أبي طالبٍ – رضي الله عنه – قال: قالَ رسولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: «**أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا ما؛ عَسَى أنْ يكونَ بَغيضَك يومًا ما**»[١].

وقالَ عُمَرُ – رضي الله عنه –: «يا أَسْلَمُ، لا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، ولا بُغْضُكَ تَلَفًا». قلتُ: «وكيفَ ذاكَ؟!». قال: «إذا أَحْبَبْتَ فلا تَكْلَفْ كما يَكْلَفُ الصَّبيُّ بالشَّيْءِ يُحِبُّهُ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فلا تُبْغِضْ بُغْضًا يُحبُّ أَنْ يَتْلَفَ صاحِبُكَ وَيَهْلِكَ»[٢].

وقال الحَسَنُ – رحمه الله –: «أَحبُّوا هَوْنًا، وَأَبْغضوا هَوْنًا؛ فَقَدْ أَفْرطَ أَقْوامٌ في حُبِّ أَقْوامٍ فَهَلَكوا، وَأَفْرَطَ أَقْوامٌ في بُغْضِ أَقوامٍ فهلَكُوا»[٣].

وقالَ أبو الأَسْوَدِ الدُّؤَليُّ – رحمه الله –:

وكُنْ مَعْدِنًا للْخَيرِ، واصْفَحْ عَنِ الأَذَى ... فَإِنَّكَ راءٍ ما عَلِمْتَ وسَامِعُ
وَأَحْبِبْ – إذا أَحْبَبْتَ – حُبًّا مُقَارِبًا ... فَإِنَّكَ لا تَدْري مَتى أَنْتَ نازِعُ
وَأَبْغِضْ – إِذَا أَبْغَضْتَ – غَيْرَ مُباينٍ[٤] ... فإِنَّكَ لا تَدْري متى أَنتَ راجِعُ[٥].

(١) رواه الترمذيُّ (١٩٩٧)، والسلميُّ في «آداب الصُّحبة» (ص١١٤)، والخطيب في «تاريخه» (١١/٤٢٧ – ٤٢٨) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مَرْفوعًا، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٧٨)، ورواه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٣٢١) موقوفًا على عليِّ بْنِ أبي طالبٍ – رضي الله عنه –، وحسَّنَهُ لغيره الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٩٩٢)، وقال: وقد صحَّ مرفوعًا.
(٢) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٣٢٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٩٩٣).
(٣) البغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٣/٦٥).
(٤) **مباين**: مُقاطع.
(٥) «روضة العقلاء» (ص٩٦ – ٩٧)، و«أدب الدنيا والدين» (ص١٧٧).

عَاطِفَةُ الأُخُوَّةِ

العاطِفَةُ الصَّادِقَةُ تَجْعَل للحياةِ مَذَاقًا لا يُدْرِكُهُ إلاَّ مَنْ عَايَنَهُ، ولَيْسَ الخَبَرُ كالمعَايَنَةِ، ولا النَّائحَةُ الثَّكْلَى كالمستَأجرةِ، وجُمْلة القول كما قيل:

لا تَعْذُلِ [(١)] المُشْتاقَ في أَشْواقِهِ حتَّى يكونَ حَشَاكَ [(٢)] في أَحْشَائِهِ

فالعاطِفَةُ تُشْعِلُ نارَ الشَّوقِ بَيْنَ جَوانِحِ [(٣)] المُحبِّ، فَيَشْتاق إِليهِ، ويَأْنَسُ بِحَديثِهِ، وَيَفْرَحُ بِلِقَائِهِ، حتَّى يَوَدَّ ألاَّ يُفارِقَهُ في حياةٍ ولا موتٍ!.

يَا لَيْتَني أَحْيَا بِقُرْبِهِمْ فَإِذا فَقَدْتُهُمُ انْقَضَى عُمْري
فَتَكونَ دَاري بَيْنَ دُورِهِمْ ويَكونَ بَيْنَ قُبورِهِمْ قَبْري.

وقال آخرُ - وَقَدْ أَخَذَهُ الشَّوْقُ لإِخْوَانِهِ -:

وَمِنْ عَجَبٍ أنِّي أَحِنُّ إِليهِمُ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْني وَهُمْ في سَوَادِها وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعي!.

وقالَ آخَرُ:

فَإِنْ يَكُ عَنْ لِقَائِكَ غابَ وَجْهي فَلَمْ تَغِبِ المَوَدَّةُ والإِخَاءُ
وَلَمْ يَغِبِ الثَّناءُ عليكَ مِنِّي بِظَهْرِ الغَيْبِ يَتْبَعُهُ الدُّعَاءُ
ومَازالتْ تَتُوقُ إِليكَ نَفْسي على الحَالاتِ، يَحْدوها الوَفَاءُ.

---

(١) **عَذَلَهُ - من باب نصرَ -**: لامَهُ وعاتبه.
(٢) **الحَشَا**: ما انضمَّتْ عليه الضُّلُوعُ، والجَمْعُ أَحْشَاء.
(٣) **الجَوَانح**: الأَضْلاع التي تحت الترائب، وهي مما يلي الصَّدرَ كالضُّلوعِ مِمَّا يلي الظَّهْرَ، والواحدة جانحة.

وفَارَقَ أَحدُ العلُمَاءِ(١) صديقًا لهُ؛ فكَتَبَ إليه رسالةً مُصَدَّرَةً بالأبياتِ الآتية:

بَعُـدْتَ وَنَفْـسي في هواكَ تَصِيـدُ ... فَلَمْ يُغْنِ عَنها في الجنانِ قَصيدُ (٢)
وخلَّفْتَ ما بَيْنَ الجَوانحِ غُصَّةً (٣) ... لها بَيْنَ أَحْشَاءِ الضُّلُوعِ وُقُودُ
وَأَضْحَتْ أَماني القُرْبِ منْكَ ضئيلةً ... ومرُّ اللَّيالي ضَعفُها سيَزيدُ
أَتَذْكُرُ إِذْ وَدَّعتنا صُبْحَ ليلةٍ ... يَمُوجُ بِها أُنْسٌ لنا وبُرُودُ
وهَلْ كانَ ذا رَمْزًا لتَوْديعِ أُنْسِنا؟! ... وَهَلْ بَعْدَ هذا البَيْنِ (٤) سوف يَعُودُ؟!
أَلَمْ تَرَ هذا الدَّهْرَ كيفَ تَلاعَبَتْ ... أصَابِعُهُ بالدُّرِّ (٥) وهْو نَضيدُ (٦)؟!
إذا قيل: مَنْ للعلمِ والفِكْرِ والتُّقى؟ ... ذَكَرْتُكَ إِيقانًا بأَنَّكَ فَريدُ
فَقُلْ للَّيالي: جَدِّدي مِنْ نظانا ... فَحَسْبُكَ ما قَدْ كان فهْو شديدُ.

ثم كَتَبَ تحت هذه الأبيات: «هذه كَلِماتٌ جَاشَتْ بها النَّفسُ الآن عنْدَ إرادَة الكتَابَة إِليْكم، فَأَبُثُّها على علاَّتها، وهي وإنْ لم يكنْ لها رَوْنَقُ البلاغَة والفَصَاحَة، فإنَّ الودَّ والإخاءَ والوِجْدانَ النَّفْسيَّ يتَرَقْرَق في أعْماقِها» (٧) .

ولَمَّا وَصَلَتْ تلكَ الرسالةُ إلى صديقِهِ الشَّيْخ محمد الخضر حسين، أجاب بالأبيات الآتية:

أَيَنْعمُ لي بالٌ وَأَنْتَ بَعِيدُ ... وَأَسْلُو بِطَيْفٍ (٨) والمنامُ شَريدُ؟!

---

(١) هو الإمام الطاهر بن عاشور، كبير القضاة بتونس في عصره.
(٢) **القصيد**: جمع القصيدة من الشِّعر.
(٣) **الغُصَّة**: الهمُّ والحزن والشَّجى، والجمْعُ غُصَصٌ.
(٤) **البَيْن**: الفراق، وبابه باع.
(٥) **الدُّرّ**: جمع دُرَّةٍ، وهي اللُّؤلُؤة.
(٦) **نضيد**: منضود، أي مُتراكم بعضه فوق بعض.
(٧) «الصَّداقة بينَ العلماء» (ص٦٥).
(٨) **الطَّيْفُ**: ما يراهُ النَّائمُ في صورة محبوبه.

إذا أَجَّجَتْ ذِكْرَاكَ شَوْقي أُخْضِلَتْ(١) – لَعَمْري – بدَمْعِ المُقْلَتَيْنِ(٢) خُدُودُ
بَعُدْتُ وآمادُ (٣) الحياةِ كثيرةٌ وللأَمَدِ الأسمى عليَّ عُهُودُ (٤)
بَعُدْتُ بجُثماني (٥) ورُوحي رهينةٌ لَدَيْكَ، وللوُدِّ الصَّميمِ(٦) قُيُودُ
عَرَفْتُكَ إذْ زُرْتُ الوَزيرَ وقَدْ حَنَا عليَّ بإِقبالٍ وأَنتَ شَهيدُ (٧)
فكانَ غروبُ الشَّمْسِ فَجْرَ صداقةٍ لها بَيْنَ أَحْناءِ الضُّلُوعِ خُلُودُ
لَقيْتُ الوِدادَ الحُرَّ مِنْ قَلْبٍ ماجِدٍ(٨) وَأَصْدَقُ مَنْ يُصْفي(٩) الوِدادَ مَجيْدُ
أَلَمْ تَرْمِ للإِصلاحِ عَنْ قوسٍ نافذٍ ورعًا كيف يُرعى طارفٌ(١٠) وتَليدُ(١١)؟!
وقُمْتَ على الآدابِ تَحْمي قديمَها مَخَافَةَ أَنْ يَطْغى عَلَيهِ جَديدُ
أَتَذْكُرُ إذْ كُنَّا نُباكِرُ مَعْهَداً (١٢) حُمَيَّاهُ عِلْمٌ، والسقاةُ أُسُودُ؟
أَتَذْكُرُ إذْ كُنَّا قَرِيبَيْنِ عِنْدَمَا يَحِينُ صُدُورٌ أو يَحِينُ وُرُودُ؟
فَأَيْنَ لَيالينا وأَسْمارُها التي تُبَلُّ بها عِنْدَ الظماءِ كُبُودُ؟
ليالٍ قضيناها بتُونِسَ لَيْتَها تَعودُ ، وَجَيْشُ الغاصِبينَ طَرِيدُ! (١٣)

---

(١) **أُخْضِلَتْ**: أُبلَّتْ .
(٢) **المُقْلَة** : شَحْمَة العين التي تجمع البَيَاضَ والسَّوادَ ، والجمع مُقَلٌ.
(٣) **الآماد**: جمع أمَد، وهو الغاية.
(٤) **يَعْني بالأَمَد الأَسْمى** : القيامَ بالدَّعوة إلى الله.
(٥) **الجُثْمان** : الشخص.
(٦) **الصَّميم** : الخالص .
(٧) **الوزير** : هو محمد عبد العزيز بو عبور (١٢٤٠ – ١٣٢٥) ، والبَيْت إشارة إلى أوَّل لقاءٍ بين الخضر وابن عاشور.
(٨) **ماجد** : كريم
(٩) **يُصْفي**: يُخْلص .
(١٠) **الطَّارف** : الجديد المُسْتَحْدَث .
(١١) **التَّليد** : القديم
(١٢) **نُباكر**: نأتي مُبَكِّرين، **والمعهد** : جامع الزيتونة .
(١٣) «الصداقة بين العلماء» (ص ٦٥ – ٦٦) .

وبَعَثَ الأَديبُ التُّونسيُّ محمد المَأْمُون النيفر إلى العلاَّمَة محمد الخضر حسين بقَصيدَةٍ، تَنُمُّ عَنْ عَاطِفَةٍ جيَّاشَةٍ، يقولُ فيها :

أَزُفُّ تَحَايَا الوُدِّ والبَرَكَاتِ ... وَأُهْدي سلامًا عاطِرَ النَّفَحَاتِ
وأُرْسِلُ طاقاتِ الثَّناءِ جميلةً ... مُنَضَّدَةَ الأَوْرادِ والزَّهَرَاتِ
إِلى عالمٍ أَخْبارُهُ ذاعَ صِيتُها (١) ... وَآثارُهُ أَضْحَتْ حديثَ رُواةِ
بصيرٌ بأَدْواءِ النُّفوسِ، طبيبُها ... إذا ما رَمَاهُ حادثٌ بشَكَاةِ
وهذه أَجْزاءُ (الهداية) (٢) بَيْننا ... تَدُلُّ على الإِبداعِ في النَّظَراتِ
مثابَةُ تَحْقيقٍ، ومَهْبَطُ حكْمةٍ ... وعُنْوانُ تدقيقٍ، ونَبْعُ عِظَاتِ
وروضةُ حُسْنٍ تَفَتَّقَ زَهْرُها (٣) ... وَفَاحَ، فَأَحْيا لي رَبِيعَ حَيَاتي
جَزَاكَ إِلهُ العَرْشِ أَفْضَلَ ما جزَى ... به ناصحًا عَنْ نافعِ الخَدَماتِ!
ولا بَرِحَ اللُّطْفُ الخَفِيُّ يَحُفُّكُمْ ... وَأَنْتُمْ لِدينِ اللهِ خَيْرُ حُمَاةِ!

فأَجابَهُ الشَّيخُ الخضر بقوله :

أَهَذي تَحَايَا الوُدِّ والبَرَكَاتِ ... أَمِ الرَّوْضُ يُهْدي أَطْيَبَ النَّفَحَاتِ؟
وهذا رَقيمٌ(٤) لو بَدَوْتُ(٥) خَلْتُهُ(٦) ... –وَقَدْ جادَ بالإِيناسِ– لحَظَ(٧) مَهَاةِ(٨)(٩)

---

(١) **الصِّيتُ – بالكسر –** : الذكر الجميلُ .
(٢) **يقصدُ بالهداية** : مجلَّة الهداية الإِسلاميَّة التي كان يُصْدِرها الشيخ محمد الخضر.
(٣) **تَفتَّق زهرُها** : انشقَّ وخَرجَ من أكمامِهِ.
(٤) **الرَّقيم** : الكتاب .
(٥) **بَدَوْتُ** : خَرَجْتُ إِلى البادِيَةِ .
(٦) **خلْتُهُ** : حَسِبْتُهُ .
(٧) **اللَّحْظ** : النَّظَر للشيءِ بمُؤْخِر – بوزن مُؤْمن – العين، أي طرفها ممَّا يلي الصُّدْغَ.
(٨) **المَهَاة** : البقَرَةُ الوحشيَّة، وبها تُشَبّه الحسناءُ من النِّساءِ في جمالِ العينينِ، وحسن اتِّساعهما، وجمعها مَهَا، ومَهَوَاتٌ .
(٩) **يقول** : لو خَرَجْتُ إِلى الباديةِ لحَسِبْتُ هذا الرَّقيم المدوَّن فيه هذه الأبيات الشعريَّةُ – من جمالِ روعتِهِ – عَيْنَ مَهَاةٍ.

أَجَلْ، هُوَ شِعْرٌ يَحْمِلُ الأُنْسَ مِنْ رُبا(١) ... بلادٍ، بِهـا قَـضَّـيْتُ صَـدْرَ حَـيـاتي
ذَكَرْتُ رُبا (المرسى)(٢) الأَنيقةَ والصَّبا(٣) ... تُذِيعُ شَذَا(٤) أَزْهارِها البَهَجَاتِ(٥)
وسَامِرَ آدابٍ حِسانٍ كَأَنَّهُ ... مَرَاتِعُ ما بالبِقاعِ مِنْ ظَبَياتِ(٦)
وَرَوْضَةَ عِلْمٍ كُنْتُ أَجْني ثِمارَها ... وَأَرْشُفُ(٧) منها أَعْذَبَ اللَّهَجاتِ
فيا مُذَكِّري عهداً طَوَتْهُ يَدُ النَّوى(٨) ... وَأَذْكَتْ(٩) لَهُ في مُهْجتي(١٠) حَسَرَاتِ
أُحَيِّيكَ مِنْ مِصْرٍ تحِيَّةَ والدٍ ... تَبَرُّ بِه الآصَالَ(١١) والغَدَواتِ(١٢)
بَعَثْتُ بِشِعْرٍ طارفٍ لَمَعَتْ به ... مِنَ الأَدَبِ المَوْروثِ خَيْرُ سِمَاتِ(١٣)
أَراكَ ظَلَمْتَ الغيدَ(١٤) إِذْ صُغْتَ لُؤلُؤاً ... ونَضَّدْتَهُ شِعْراً عَلَى صَفَحَاتِ
وَأَهْدَيْتَ طَاقَاتِ الثَّناءِ، وَلَيْتَني ... مَلأْتُ يَدي مِنْ تِلْكُمُ الحَسَنَاتِ(١٥)
فيا أَسَفًا لَمْ أَقْضِ حَقَّ العُلا، وما ... بَلَغْتُ مِنَ الْعِرْفَانِ شَأْوَ(١٦) لِداتي!(١٧)

---

(١) **الرُّبا** : الأماكن المرتفعة من الأرض، مفردها رُبْوَةٌ – بتَثليث الرَّاء – .

(٢) **المرسى** : بلدة في ضاحية العاصمة تونس .

(٣) **الصَّبا** : ريحٌ طيبة ، مَهَبُّها من مَطْلَعِ الشّمسِ إذا استوى اللَّيلُ والنَّهارُ، ومقابِلَتُها الدَّبورُ .

(٤) **الشَّذا** : الرائحة الطَّيِّبة الحادَّة .

(٥) **البهجات** : جمع بَهْجة، وهي الحُسْنُ والرَّوْنَقُ .

(٦) **الظَّبَيات – بفتح الباء –** : جمع ظَبْيَةٍ ، وهي الأنثى من الغِزْلان .

(٧) **الرَّشْفُ** : المصُّ ، وبابه ضَرَبَ ، ونَصَرَ .

(٨) **النَّوى** : البُعْدُ والفراق .

(٩) **أَذْكَتْ** : أَشْعَلَتْ .

(١٠) **المُهْجة** : الرُّوح ، والجمعُ مُهَجٌ .

(١١) **الآصال**: جمع أصيلٍ، وهو الوقت بَعْدَ العصرِ إلى المغرِبِ ، ويُجْمَعُ – أيضًا – على أُصُلٍ ، وأَصَائِلَ، وأُصْلان .

(١٢) **الغَدَوات** : جمعُ غُدْوَةٍ ، وهي ما بينَ صلاة الغَداةِ وطُلُوعِ الشَّمسِ، وتُجْمَع – أيضًا – على غُدًا .

(١٣) **سمات** : علامات ، واحدها سِمَةٌ .

(١٤) **الغيد** : جمع غَيْداءَ، وهي المَرْأَةُ النَّاعِمَةُ اللَّيِّنَةُ الأَعْطاف ، ومعنى البَيْت : أنَّ جمال شعرك أَزْرَى بجمال الغيد .

(١٥) **يقول** : إِنَّكَ مدحتني مَدْحًا لا أستحِقُّهُ، وَلَيْتَني كنتُ كما ظَنَنْتَ .

(١٦) **الشَّأْو** : الغاية والأَمَدُ .

(١٧) **لِداتي** : أقراني .

وآنَسْتُ في رُوحِ الخِطابِ سَنَا[١] الهُدَى — وبعضُ بَني الأَمْـجـادِ غَـيْـرُ هُداةِ
وما أبصَـرَتْ عَـيْنَايَ أَجْـمَلَ مِنْ فَتَىً — يَخَـافُ مَـقَـامَ اللهِ في الخَلَوَاتِ
ولا خَـيْـرَ إلاَّ في نُفُـوسٍ تَرَشَّـفَتْ — لِبانَ [٢] التُّقى مِنْ حِكْمَـةٍ وعِظَاتِ
فَـأَحْـمَـدُ مِنْكَ الوُدَّ والقَلَمَ الّذي — جَنَى لي طاقـاتٍ مِنَ الدَّعَـوَاتِ
ولا زِلْتَ مِثْلَ الغُصْنِ يَنْمو بِمَنْبَتٍ — كَـريمٍ، فَـيُـؤْتِي أَطْيَبَ الثَّـمَـرَاتِ![٣]

---

(١) **السَّنا** : الضَّوْء السَّاطع.
(٢) **اللِّبان** : اللَّبَنُ ، إلاَّ أنَّ اللَّبَنَ للبهائمِ ، واللِّبانَ لبناتِ آدم.
(٣) «الصَّدَاقة بَيْنَ العُلَماءِ» (ص٧٠ - ٧١) .

مَنْ لكَ بأخيكَ كلِّه؟!

لا يوجَدُ أخٌ سَليمٌ مِنَ العُيوب، ولا صَاحِبٌ يَخْلو مِنْ نَقْصٍ، ومَنْ رَامَ كاملاً رامَ أمْرًا مُعْوِزًا(١)، ولو أَنْفَقَ في ذَلِكَ العُمْرَ كُلَّهُ، وهَكَذَا الحَياةُ، وهكَذَا أَبْنَاءُ الدُّنْيا.

هُمُ النَّاسُ والدُّنيا ، ولابُدَّ مِنْ قَذًى(٢) يُلِمُّ بعَيْنٍ(٣)، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبا
وَمِنْ قِلَّةِ الإِنصافِ أَنَّكَ تَبْتَغي الْـ مُهَذَّبَ في الدُّنيا، ولَسْتَ المُهَذَّبا(٤).

أخي، إخْوَانك بَشَرٌ، يَصْدُرُ مِنْهُمْ ما يَصْدُرُ مِنَ البَشَرِ، فإذا صَدَرَتْ مِنْ أَحَدهِمْ زَلَّةٌ أَوْ هَفْوَةٌ، فلا تَتْرُكْهُ لِهَذه الزَّلَّة، أَوْ لِتلْكَ الهَفْوَة، بَلْ أَعِنْهُ عَلَى أَنْ يُصْلِحَ نَفْسَهُ، فأَيُّ أَخٍ لكَ لا يَهْفو؟!، وأيُّ جَوَادٍ لا يَكْبو؟!.

قالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ: «لَيْسَ مِنْ شريفٍ، ولا عَالِمٍ، ولا ذي فَضْلٍ – إلاَّ وفيه عَيْبٌ، ولكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَنْبَغي أَنْ تُذْكَرَ عُيُوبُهُ، فَمَنْ كانَ فَضْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْصِه، وهَبَ نَقْصَهُ لِفَضْلِه»(٥).

وقال رجاء بن حيوة: «مَنْ لَمْ يُؤاخِ مِنَ الإِخْوَانِ إلاَّ مَنْ لا عَيْبَ فيه قَلَّ صديقُهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنْ صَديقِهِ إلاَّ بالإِخْلاصِ دَامَ سُخطُهُ، وَمَنْ عاتَبَ إِخْوَانَهُ على كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عَدُوُّهُ»(٦).

وقال عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ: «إِذَا غَلَبَتْ مَحَاسِنُ الرَّجُلِ على مساوئِهِ لَمْ تُذْكَرِ المساوئُ، وإِذَا غَلَبَتْ المساوئُ على المَحاسِنِ لَمْ تُذْكَرِ المحاسنُ»(٧).

---

(١) **يُقال**: أَعْوَزَهُ الشَّيْءُ: إذا احْتاجَ إليه، فَلَمْ يَقْدِرْ عليه.
(٢) **القَذَى**: ما يَسْقُطُ في العين والشَّرابِ من ترابٍ ونحوه، والمفرد قَذَاةٌ.
(٣) **يُلِمُّ بعينك**: ينزل بها.
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٤).
(٥) «ذَيْل التِّبْر المسبوك» للسخاويِّ (ص٤).
(٦) «تهذيب تاريخ دمشق» (٥/٣١٧).
(٧) «سيَر أعلام النُّبلاء» (٥/٣٩٨).

أخي، إذا كانَ لا يُرْضيكَ مِنْ أَخيكَ بعضُهُ، فَانْظُرْ إِلَى نَفْسكَ هَلْ تُعْطيكَ المَقَادَةَ في كُلِّ ما تُريد؟، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ؛ فَإِنَّ ذَلكَ مُحالٌ، فَكَيْفَ بنَفْسِ غيْرِكَ؟!.

قال الجَاحظُ: «فلا تَكُونَنَّ لشيءٍ مِمَّا في يَدِكَ أشَدَّ ضِنًّا (١)، ولا عَلَيْه أَشدَّ حَدَبًا منْكَ بالأَخِ الذي قدْ بَلَوْتَهُ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، فَعَرَفْتَ مذَاهِبَهُ، وَخَبَرْتَ شيمَتَهُ(٢)، وَصَحَّ لَكَ غَيْبُهُ، وسَلِمَتْ لكَ نَاحيَتُهُ؛ فإِنَّما هو شَقيقُ رُوحِكَ، وبابُ الرُّوحِ إلى حَياتكَ، ومُسْتَمدُّ رَأْيكَ، وَتَوْأَمُ عَقْلكَ.

فَإِذَا صَفَا لَكَ أَخٌ، فَكُنْ به أَشَدَّ ضِنًّا منْكَ بنَفَائس أمْوالكَ، ثُمَّ لا يُزْهِدَنَّكَ فيهِ أَنْ تَرَى منْهُ خُلُقًا أَوْ خُلُقين تَكْرَهُهما؛ فإِنَّ نَفْسَكَ التي هي أَخَصُّ النُّفوسِ بِكَ لا تُعْطيكَ المَقَادَةَ في كُلِّ ما تُريد، فَكَيْفَ بِنَفْسِ غَيْرِكَ؟!، وبِحَسْبِكَ أَنْ يكونَ لكَ مِنْ أَخِيكَ أَكْثَرُهُ، وقد قال أكْثَمُ بن صَيْفيٍّ: مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّه؟!.

وقال النَّابِغَةُ الذُّبْيَانيُّ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ (٣) عَلَى شَعَثٍ(٤) أَيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟!»(٥)

وَقَالَ الكِنْديُّ: «كَيْفَ تُريدُ مِنْ صَديقكَ خُلُقًا واحدًا، وهو ذو طَبَائعَ أربع؟! مع أنَّ نَفْسَ الإنْسانِ - التي هيَ أَخَصُّ النُفوسِ بِهِ، ومُدبَّرةٌ باخْتيارِهِ وإرادَته - لا تُعْطيه قيَادَهَا في كُلِّ ما يُريد، ولا تُجيبُهُ إلى طاعَته في كُلِّ ما يُحِبُّ، فَكَيْفَ بِنَفْسِ غَيْرِه؟!، وَحَسْبُكَ أَنْ يَكونَ لكَ مِنْ أَخيكَ أَكْثَرُهُ»(٦).

(١) **الضِّنُّ - بالكسر -**: البُخْلُ.
(٢) **خَبَرْتَ شيمَتَهُ**: عَلِمْتَها، والشِّيمة - بالكسر -: الخُلُق والطبيعة، والجمع شِيَمٌ.
(٣) **تَلُمُّهُ**: تَجمعه إليكَ.
(٤) **الشَّعَث - بفتحتين -**: اتِّساخ الرَّأس من الغُبار، والمقصود على ما به من الزَّلاَّت والهَفَوات.
(٥) «رسائل الجاحظ» «رسالة المعاش والمعاد» (١ / ١٢٢).
(٦) «أدب الدُّنيا والدين» (ص١٧٣).

وقـالَ بعَضُ البلُغَـاءِ : «لا يُزْهِدنَّكَ في رَجُلٍ حَمِدْتَ سيرَتَه، وارتَضَيْتَ وَتيْرَتَهُ(١) ، وعَرفتَ فَضْلَهُ، وبَطنتَ عَقْلَهُ – عَيْبٌ تُحيطُ به كَثْرَةُ فَضَائله، أَوْ ذَنْبٌ صَغيرٌ تَسْتَغْفرُ لَهُ قُوَّةُ وسائله؛ فإنَّك لَنْ تَجدَ – ما بَقيْتَ – مُهَذَّبًا، لا يكونُ فيه عَيْبٌ، ولا يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ؛ فاعْتَبِرْ بِنَفْسكَ بَعْدَ ألاَّ تَرَاهَا بعَينِ الرِّضى، ولا تَجْري فيها على حُكْمِ الهَوَى؛ فإنَّ في اعْتِبَارِكَ بها، واخْتِيَارِكَ لها ما يُؤَيِّسُكَ مِمَّا تَطْلُبُ، ويَعْطِفُكَ على مَنْ يُذْنِب.

وقد قال الشَّاعِرُ:

مَنْ ذا الَّذي تُرضى سَجَاياهُ(٢) كُلُّها؟! كَفَى المرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ» (٣)

وقَالَ آخر :

أَخٌ لي كأيَّامِ الحياةِ إخاؤُهُ تَلوَّنَ (٤) أَلْوانًا كَثيرًا خُطُوبُها (٥)
إِذَا عِبْتُ مِنْهُ خَلَّةً (٦) فَهَجَرْتُهُ دَعَتْني إِلَيه خَلَّةٌ لا أَعِيبُها(٧)

وقال آخرُ :

ولي صاحبٌ فالموتُ يَوْمَ فِراقِهِ تَغَيَّرَ ، والأَيَّامُ جَمٌّ(٨) عَجيبُها
أُرِيدُ لَهُ هَجْراً لِبَعْضِ خِلالِهِ فَتَعْطِفُني أُخْرى لَهُ، فَأُجِيبُها (٩) .

---

(١) **الوتيرة** : الطَّريقة.
(٢) **السَّجايا** : جمع سَجيَّةٍ ، وهي الخُلُق والطَّبيعة .
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٤) .
(٤) **تلوَّنَ** : تَغيَّر ولم يَثْبُتْ على خُلُقٍ واحدٍ.
(٥) **خُطُوب** : جمع خَطْبٍ، وهو الأمر العظيم المكروه.
(٦) **الخَلَّة – بفتح الخاء –** : الصِّفة والخَصْلَة، و الجمع خِلال.
(٨) **جَمٌّ** : كثيرٌ .
(٩) «تاريخ بغداد» (١/ ١٥) .

أَقْلِلْ عِتَابَكَ

كَثْرَةُ العتابِ تُشْعِرُ أَخَاكَ أَنَّكَ لا تَتَحَمَّلُ أَدنى شيءٍ منه، فلا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ أنْ تُعَاتِبَ أَخَاكَ في الصَّغِيرَةِ والكبيرَةِ. فَمَا كُلُّ إِنسانٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَاتَبَ، بَلْ لكُلِّ شَخْصٍ حالٌ، ولكُلِّ حالٍ مِقْدَار.

قال الله – سبحانه وتعالى –: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

قال عَلِيُّ بْنُ أَبي طالبٍ – رضي الله عنه – في قوله – تعالى –: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ قال: «الرِّضى بِغَيْرِ عِتَابٍ»[١].

وقالَ شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «ذَكَرَ اللهُ في كتابه الصَّبْرَ الجَميل، والصَّفْحَ الجَميلَ، والهَجْرَ الجَميلَ. الصَّبْرُ الجميلُ: هو الذي لا شَكْوَى فيه ولا معه. والصَّفْحُ الجميلُ: هو الذي لا عِتابَ معه. والهَجْرُ الجميلُ: هو الذي لا أذى معه»[٢].

وعن أنس بْنِ مالكٍ – رضي الله عنه – قال: «مَا مَسَسْتُ دِيْباجًا ولا حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – عَشْرَ سنينَ، فما قالَ لي: أُفٍّ قَطُّ، ولا لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟، ولا لشيءٍ لم أفْعَلْهُ: ألا فَعَلْتَ كذا وكذا؟»[٣].

قالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إذا كُنتَ في كُلِّ الأُمورِ مُعاتِبًا ... صديقَكَ، لَمْ تلقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

وإِنْ أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِراراً على القَذَى ... ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفو مَشارِبُهْ؟!

فَعِشْ واحداً، أَوْ صِلْ أخاكَ، فإِنَّهُ ... مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهْ[٤]

(١) «الدُّرُّ المَنْثور» للسِّيوطيِّ (٤/١٠٤)، و«فتح القدير» للشَّوكانيِّ (٣/١٤١)، و«أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٤).
(٢) «مدارج السَّالكين» (٢/١٦٧) بتصرُّفٍ.
(٣) رواه البخاريُّ (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٠٩).
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).

والعِتابُ غَيْرُ محمودِ العاقبة غالبًا، ولَكِنْ هُناكَ حَالات لا يُوفَّقُ لَهاَ إِلاَّ حَكيمٌ عليمٌ بِسيَاسَةِ النُّفوسِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ العتابَ ما هوَ إِلاَّ تَسْفيهٌ له، وهذا كثيرٌ، ومِنْهُم مَنْ يَتَقَبَّل العتابَ على أَنَّهُ نصيحةٌ وجيهةٌ، وهذا قليلٌ، فإِذا وَجَدْتَ للعتاب موضعًا فعاتبْ، ولا سيَّما إِذا كَانَ بدونه يحصُلُ الحِقْدُ.

قال الأَحْنَفُ بنُ قَيْسٍ: «العِتابُ مِفتاحُ التَّعالي، والعِتابُ خيرٌ مِن الحِقْدِ»[١].

والعِتابُ لا يكون إِلاَّ على زلَّةٍ، وقد مدحه قومٌ، فقالوا: العتابُ حدائق المتحابِّينَ، ودليلٌ على بقاءِ المودَّةِ.

قال المُتَنَبِّي:

لعلَّ عَتْبَكَ مَحْمودٌ عواقِبُهُ فَرُبَّما صَحَّتِ الأَجْسامُ بالعللِ[٢]

وذَمَّهُ بَعْضُهُم، قالَ إِيَاسُ بن مُعاويةَ: «وخَرَجْتُ في سَفَرٍ ومعي رجلٌ من الأَعْرابِ، فلمَّا كان في بعضِ المَناهِلِ[٣] لَقِيَهُ ابْنُ عَمٍّ له، فَتَعَانَقا وتعاتَبَا، وإِلى جانبهما شَيْخٌ مِنَ الحَيِّ، فقالَ لهُما: أَنْعِمَا عَيْشًا؛ إِنَّ المعاتبَةَ تَبْعَثُ التَّجَنِّي[٤]، والتَّجَنِّي يَبْعَثُ المخاصَمَةَ، والمخاصمةُ تَبْعَثُ العداوةَ، ولا خيرَ في شَيْءٍ ثمَرَتُهُ العَدَاوَةُ».

قال الشاعِرُ:

فدَعِ العِتابَ؛ فَرُبَّ شَرَ رٍ هاج، أَوَّلُهُ العِتابُ[٥]

---

(١) «سير أعلام النُّبلاء» (٤/ ٩٤).

(٢) **العِلل**: الأمراض، واحدها عِلَّة.

(٣) **المناهل**: المنازل التي في المفاوز على طُرُق السُّفَّار، سُمِّيَتْ بالمناهل؛ لأنَّ فيها ماءً، والمفرد مَنْهَل.

(٤) **التَّجَنِّي**: التَّجَرُّم، وهو أَن يدَّعيَ أحدُهما على الآخر ذَنْبًا لم يفعلْهُ.

(٥) «المستطرف» (١/ ٢٨٢).

وَقَالَ آخَرُ :

إذَا أَنْتَ عَاتَبْتَ المَلُولَ(١) ، فإنَّما تَخُطُّ على صُحُفٍ مِنَ الماءِ أَحْرُفا
وَهَبْهُ (٢) ارْعَوَى (٣) بعدَ العِتابِ ألمْ تكنْ مَوَدَّتُهُ طَبْعًا، فَصارَتْ تكلُّفا؟!(٤)

ومن دُرَرِ العلاَّمَةَ ابن حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللهُ - قوله : «العِتَابُ للصَّديقِ كالسَّبْكِ للسَّبيكَةِ: فَإِمَّا تَصْفو، وإِمَّا تَطير» (٥) .

وقالَ الإمامُ الماوَرْديُّ - رَحِمَهُ اللهُ - :

«إنَّ كَثْرَةَ العتاب سَببٌ للقَطيعَة، واطِّراح جميعه دليلٌ على قلَّة الاكتراث بأَمْرِ الصَّديقِ، وقَدْ قِيلَ: علَّةُ المُعادَاة قلَّةُ المُبالاة، بَلْ تتوسَّطُ حالتي تَرْكه وعتابه، فَيُسامَحُ بالمُتاركَة، ويُسْتَصْلَح بالمعاتَبَة؛ فإنَّ المُسامَحَةَ والاستصلاح إذا اجتمعا لم يَلْبَثْ مَعَهُمَا نُفُورٌ، ولمْ يَبْقَ معهما وَجْدٌ (٦)، وقد قالَ بَعْضُ الحُكَماءِ: لا تُكْثِرَنَّ مُعاتَبَةَ إِخْوانكَ؛ فيهونَ عليهم سُخْطُكَ» (٧) .

ويتَأَكَّدُ العتابُ حينَ يَجدُ (٨) الأَخُ على أخيه في نَفْسه، ويَكْتُم السَّبَب، ويَظَلُّ الأَخُ مُتألِّمًا، في حين تَظَلُّ لُغَةُ العُيونِ تَهْدِمُ بُنْيَانَ الأُخُوَّةِ؛ فَعِتابُ الأخ في هذه الحالة خيرٌ من فقده.

قال أبو الدَّرداءِ : «عتابُ الأخِ خيرٌ من فَقْدِه» (٩) .

---

(١) **المَلولَ** : هو السَّريع التَّغيُّر، الوشيك التَّنَكُّر .
(٢) **هَبْ** : فعل أمر جامد بمعنى ظُنَّ وافترضْ.
(٣) **الارعواء** : الرُّجوع الحسن .
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨) .
(٥) «الأخلاق والسير» لابن حزمٍ (ص١١٥) .
(٦) **الوَجْد** : الحُزن .
(٧) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٨) .
(٨) **يجد** : يغضب.
(٩) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٤) ، و«حلية الأولياء» (١/ ٢١٥) ، و«أدب الدنيا والدين» (ص١٧٣) .

ومن جميل ما قيلَ في العتابِ :

أُعــــاتـبُ ذا المَودَّة مِنْ صـــديقٍ ... إذا ما رابَني (١) منْهُ اغْـتـرابُ
إذا ذَهَبَ العِـتـــابُ فَلَيْس وُدٌّ ... ويَبْقى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتابُ (٢) .

وقالَ آخرُ – وأَحْسَنَ – :

أَقْلِلْ عِـتـابكَ؛ فـالزَّمـانُ قليلُ ... والدَّهْرُ يَعْـدلُ مَـرَّةً ويَمـيلُ
لَمْ أَبْكِ مِنْ زمنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ (٣) ... إلاَّ بَكَيْتُ عليـه حينَ يَزُولُ
والمنتمـون إلى الإخاءِ جـماعـةٌ ... إنْ حُصِّلوا أفْناهُمُ التَّحْصيلُ
ولعلَّ أَيَّامَ الحـيـاةِ قـصـيـرةٌ ... فَعَلامَ يَكْثُرُ عَتْبُنا ويطولُ؟!

وقال آخر:

مِنَ اليوْمِ تعاملنا ونطوي ما جرى منّا ... فلا كان ولا صارَ ولا قلتم ولا قلنا
وإِن كانَ ولابُدَّ مِنَ العُتْبى فبالحُسْنى ... فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنّا.

---

(١) **رابه الشَّيءُ** : رأى منه ما يَريبُهُ ويَكرهُهُ.
(٢) «بهجة المجالس» (٤ / ٧٣٨) .
(٣) **صروفه** : حوادثه ونوائبه، واحدها صَرْفٌ.

من حُقوقِ الأُخُوَّةِ

[١] المُواساةُ.

[٢] عِيادَةُ المَريضِ.

[٣] حِفْظُ السِّرِّ.

[٤] الوَفَاءُ.

[٥] قَبُولُ العُذْرِ.

[٦] النَّصيحةُ.

[٧] الدِّفاعُ عنِ الأخِ في غَيْبَتِهِ.

المُوَاسَـاةُ

المُوَاسَـاةُ أمـارةٌ على الأُخُـوَّةِ الصَّـادِقَـةِ؛ فـالأَخُ الصَّـادِقُ في أُخُـوَّتِه مَـنْ يُواسي إِخْوانَهُ بِحُدودِ ما يسْتَطيعُ (١)، ويُشارِكَهُمْ أفْرَاحَهُمْ وأَتْراحَهُمْ (٢)، فإذا احتاجَ أَخُوكَ إِلى شَيْءٍ مِنْ مالِكَ بَذَلْتَهُ لَهُ، وأَنْتَ هاشٌّ باشٌّ، مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ، مُحْتَسِبُ الأَجْرِ، أَوِ احتَاجَ إلى جَاهِكَ لَبَّيْتَ طَلَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَلَلٍ ولا تَضَجُّرٍ، وإذا احتاجَ إلى خدمَةِ البَدَنِ سارَعْتَ إلى خدمَتِه، وإذا استَنْصَحَكَ نَصَحْتَ له، وأنتَ مع ذلك تستشْعِرُ عَظيمَ الأجرِ؛ فالمواساةُ مِنْ أَحَبِّ الأعْمالِ إلى اللهِ - سُبْحَانَه وتَعَالَى -.

فعنِ ابنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**أَحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ -تعالى- أَنْفَعُهُمْ للنَّاسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - سُرُورٌ يُدْخِلُهُ على مُسلمٍ، أو يَكْشِفُ عنه كُرْبَةً، أَوْ يَقْضي عَنْهُ دَيْنًا، أو يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، ولأنْ أَمْشي مع أَخٍ في حاجَةٍ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أَعْتَكِفَ في هذا المسجدِ** (يَعْني مَسْجِدَ المدينة) **شَهْرًا، ومَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عورَتَه، ومَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ- ولو شاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضاهُ - مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رجاءً يومَ القِيامَةِ، ومَنْ مَشىٰ مَعَ أَخيهِ في حاجةٍ حتَّى تتهيَّأَ له، أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يومَ تَزولُ الأَقْدامُ، وإِنَّ سُوءَ**

---

(١) قال ابن القيِّم في كتابه «الفوائد» (ص٢٢٤): «المواساة للمؤمنين أنواعٌ:
الأوَّل - المواساة بالمال. الثاني - مواساة بالجاه. الثالث - مواساة بالبدن والخدمة. الرابع - مواساة بالنصيحة والإرشاد. الخامس - مواساة بالدُّعاء والاستغفار لهم. السادس - النصح لهم. السابع - مواساة بالتوجُّع لهم».
وقال: «وعلى قدر الإيمان تكونُ هذه المواساة، فكُلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضعُفَت المواساة، وكُلَّما قويَ الإيمانُ قَوِيَتْ، وكان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أَعْظَمَ الناسِ مواساةً لأصْحابه بذلك، فلأتباعه مَن المواساة بحسب اتِّباعهم له، ودخلوا على بشر الحافي في يومٍ شديد البرد، وقد تجرَّد وهو ينتفضُ فقالوا: ما هذا يا أبا نصرٍ؟!. قال: ذكرتُ الفقراء وبَرْدَهُمْ، وليس لي ما أُواسيهم، فأَحْبَبْتُ أن أُواسيهم في بَرْدِهم».
(٢) **الأتراح**: الأحزان، والمفرد تَرَحٌ.

الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ، كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ» (١).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قالَ: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا، نفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً من كُرَبِ يَوْمِ القيامة، وَمَن يَسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّرَ اللهُ عَلَيْه في الدُّنيا والآخرة، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلمًا سترَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخيه**» (٢).

ولله دَرُّ الإمام الشَّافعيِّ القائل:

النَّاسُ بالنَّاسِ ما دَامَ الحياةُ بِهِمْ ... والسَّعْدُ - لا شكَّ - تاراتٌ وَهَبَّاتُ (٣)
وأَفضلُ النَّاسِ ما بَيْنَ الوَرَى (٤) رجلٌ ... تُقْضى على يده للنَّاسِ حاجاتُ
لا تَمْنَعَنَّ يَدَ المعروف عَنْ أَحَدٍ ... مَا دُمْتَ مُقْتَدِراً، فالسَّعْدُ تاراتُ
واشكُرْ فضائلَ صُنْعِ اللهِ إذْ جُعِلَتْ ... إِليكَ لا لكَ - عِنْدَ النَّاسِ - حاجاتُ
قَدْ مات قومٌ، ما ماتَتْ مكارِمُهُمْ ... وعاشَ قومٌ وهُمْ في النَّاسِ أمواتُ (٥)

المواساة بالمال:

المواساة بالمال - كما قال العلماء - على ثلاثِ مراتبَ:

«**أدْنَاها** - أنْ تَقومَ بحاجَةِ أَخيكَ بِفَضْلِ مالِكَ، فإذا سَنَحَتْ (٦) لَهُ حاجَةٌ، وكانَ عِنْدَك فَضْلٌ، فأَعْطِه ابتداءً، ولا تَحُجْهُ إلى السُّؤالِ، ومَتَّى أَحْوَجْتَهُ إِلى السُّؤالِ فذلك غايةُ التَّقْصيرِ.

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (٣/ ٢٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٨/ ١) وحسَّن إسنادَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦).
(٣) **هبَّات**: جمع هَبَّة، وهي السَّاعة.
(٤) **الورى**: الخَلْق.
(٥) «ديوان الشافعيِّ» لبعض الأئمَّة (ص٤٢).
(٦) **سَنَحَتْ**: عَرَضَتْ، وبابُهُ خَضَعَ.

الثانية – أنْ تُنْزِلَهُ مَنْزِلَةَ نَفْسِكَ، وتَرْضى بِمُشاركته إِيَّاكَ في مالكَ.

والثالثة (وهي العُليا) – أن تُؤْثِرَهُ على نَفْسِكَ، وتُقدِّمَ حاجَتَهُ على حاجَتكَ»[١].

ولقد ضَرَب السَّلَفُ أروعَ الأمثلة في المواساة.

فَعَنْ أبي موسى – رضي الله عنه – قال: قالَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**إنَّ الأشْعَرِيِّينَ إذا أَرْمَلُوا**[٢] **في الغَزْوِ – أَوْ قلَّ طعامُ عيالِهِمْ بالمَدينة – جَمَعوا ما كَانَ عنْدَهُمْ في ثوبٍ، ثمَّ اقْتَسَموهُ بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي، وأَنا منْهُم**»[٣].

وعن أنَس بْنِ مالك – رضي الله عنه – أنَّه قال: قَدمَ عَلَيْنا عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عوفٍ وآخى النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – بَيْنَهُ وبينَ سَعْد بن الرَّبيع – وكان كَثيرَ المال – فقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلمَتْ الأنْصارُ أنِّي مِنْ أَكْثَرِها مالاً، سَأُقَسِّمُ مالي بَيْني وبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ[٤]، وليَ امْرَأتان، فانْظُرْ أَعْجَبَهما إِليكَ فَأُطَلِّقُها، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تزَوَّجْتَها. فقال عبدُ الرَّحمن: باركَ اللهُ لكَ في أَهْلكَ ومالكَ، دُلَّني على السُّوق. فخرجَ إِلى سُوقِ بني قَيْنُقاع، فَباعَ واشترى، فَربحَ، فَلَمْ يَرجعْ يومَئذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وأَقط[٥]، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ يسيراً، حتَّى جاء رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – وعليه وَضَرٌ من صُفْرَةٍ[٦]، فَقالَ له رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**مَهْيَمْ؟!**»[٧].

قال: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصارِ. قال: «**ما سُقْتَ إِليها؟**». قال: وَزْنَ نَواةٍ مِنْ ذَهَبٍ – أَوْ نواةً مِنْ ذَهَبٍ – فقال: «**أَوْلِمْ**[٨] **ولو بِشاةٍ**»[٩].

---

(١) انظر «الحب في الله» لأحمد فريد (ص٢٧، ٢٨).
(٢) **أرملوا**: أي فني طعامُهم.
(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).
(٤) **شطْرين**: نصفين.
(٥) **الأَقطُ**: اللَّبَنُ المُجَفَّفُ، يُطبَخُ به.
(٦) **معنَى الحديث**: أنَّه وجد به لطخًا من طيبٍ له لون، فسأله عنه، فأخبره أنه تزوَّجَ، وذلك من فعل العروس إذا دخل على زوجته.
(٧) **مهيم**: أي ما شأنك وما حالك؟.
(٨) **أوْلِم**: اصنع طعام الوليمة، وهي طعام العُرْسِ.
(٩) رواه البخاريُّ (٣٧٨١).

وَعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: كانَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا ذَكَرَ خَديجةَ أَثْنَى عَلَيْها، فَأَحْسَنَ الثَّناءَ، قالتْ: فَغِرْتُ يومًا، فقلتُ: ما أكثرَ ما تَذْكُرُها حَمْراءَ الشِّدْقِ(١)، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ -عَزَّ وجَلَّ- خَيْرًا منْها!. قال: «**ما أَبْدَلَني اللهُ -عزَّ وجلَّ- خيرًا منْها، وقد آمنَتْ بي إِذْ كَفَرَ النَّاسُ، وصدَّقتْني إِذْ كَذَّبَني النَّاسُ، وواسَتْني بمالِها إِذْ حَرَمَني النَّاسُ، ورَزَقَني اللهُ -عَزَّ وجلَّ- وَلَدَها إِذْ حَرَمَني أولادَ النساءِ**»(٢).

المُواساةُ بالدَّينِ:

منَ المواسَاةِ المواساةُ بالدَّيْنِ؛ فإِذَا طَلَبَ منْكَ أَخٌ مِنْ إِخْوانِكَ أَنْ تُقْرِضَهُ مَالاً -وكُنْتَ قادرًا- فَأَقْرِضْهُ دُونَ أَنْ تَسْأَلَهُ عَمَّا سَيَصْنَعُ به؛ فإِنَّ في ذلكَ خِفَّةً وسُوْءَ أَدَبٍ، وَمَتَى حَانَ وَقْتُ السَّداد، وطَلَبَ منْكَ إِمْهَالَهُ، فاقبلْ ذلك بانشراحِ صَدْرٍ، واسْتَقْبِلْهُ بالبِشْرِ؛ فَذَلكَ أَعْظَمُ لأَجْرِكَ، وإِنْ كُنْت ذا مالٍ فلا تَبْخَلْ به على إِخوانِكَ؛ فإِنَّ الذي رَزَقَكَ المَالَ مُبْتَليكَ بإِخوَةٍ؛ ليَعْلَمَ هَلْ تُطيعه فيهم، أم تعصيه.

فَعنْ أبي بِسْرٍ -رضي الله عنه- قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا -أَوْ وَضَعَ عَنْهُ- أَظَلَّهُ اللهُ في ظِلِّه**»(٣).

وعَنْ كَعْبِ بنِ مالكٍ -رضي الله عنه- أَنَّهُ تَقَاضى ابْنَ أبي حَدْرَدٍ دَيْنًا لَهُ عَليهِ في عَهْدِ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- في المسْجد، فارتفعتْ أصواتُهُما، حتَّى سَمِعَهما رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهو في بيْتِه، فَخَرَجَ إِليْهما رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ(٤) حُجْرَتِه، ونادى: «**يا كَعْبُ بنَ مالكٍ، يا كَعْبُ**». قال: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ. فأشارَ إِليه أَنْ: «**ضَعِ الشَّطْرَ منْ دَيْنِكَ**». قال كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يا رسولَ اللهِ. قال رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**قُمْ فَاقْضِه**»(٥).

---

(١) **حمراء الشِّدْق**: تعني تساقطَ أسنانها من الكِبَر.
(٢) رواه أحمد (٦/١١٧-١١٨) واللفظ له، وذكره ابن كثيرٍ في «البداية والنهاية» (٣/٢٢٧)، وقال: إسناده لا بأس به.
(٣) رواه مسلم (٣٠٠٦).
(٤) **السِّجْفُ**: السِّتارة التي تُعلَّق على البابِ أو الشُّبَّاكِ.
(٥) رواه البخاريُّ (٤٧١) ومسلم (١٥٥٩).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ - رضي الله عنه - قال: قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**تَلَقَّت الملائكةُ رُوحَ رَجُلٍ ممَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فقالوا: أَعَملْتَ منَ الخَيْرِ شيئًا؟. قال: لا. قالوا: تذكَّرْ. قال: كُنْتُ أُداينُ النَّاسَ، فَآمُرُ فتيَاني أَنْ يُنْظِروا المُعْسرَ، ويَتَجاوزوا عَنِ المُوسرِ**». قالَ: «**قالَ اللهُ - سُبْحانَهُ وتعالى -: تَجَوَّزوا**» (١).

وعن أبي مَسعود البَدْريِّ - رضي الله عنه - قال: قالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**حُوْسبَ رَجُلٌ ممَّن كَانَ قَبْلَكُمْ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ منَ الخَيْرِ شَيْءٌ، إلاَّ أَنَّهُ كَانَ يُخَالطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسرًا، فكانَ يَأْمُرُ غلْمَانَهُ أَنْ يتجاوزوا عَنِ المُعْسر**». قال: «**قالَ اللهُ - سُبحانه وتعالى -: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلكَ منْهُ، تجَاوزوا عَنْهُ**» (٢).

وَعَنْ عَبْد الله بْن أبي قَتَادَةَ - رضي الله عنهما - أنَّ أبا قَتَادَةَ طَلَبَ غَريمًا لهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ، ثُمَّ وَجَدَهُ، فقَالَ: إنِّي مُعْسرٌ. فقالَ: آللهِ؟. قال: آللهِ (٣). قال: فإنِّي سَمعْتُ رَسُولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: «**مَنْ سَرَّهُ أنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ منْ كُرَب يَوْمِ القيامَة، فلْيُنَفِّس عَنْ مُعْسرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**» (٤).

قال الشَّاعرُ:

اللهُ أعْطاكَ؛ فابْذُلْ منْ عَطيَّته ... فالمالُ عاريَةٌ والعُمْرُ رَحَّالُ
المالُ كالماءِ، إنْ تَحْبِسْ سَواقِيَهُ ... يَأْسَنْ(٥)، وإنْ يَجْرِ يَعْذُبْ منْهُ سَلْسالُ

تَقْسيم الإخْوان بِحَسبِ المواساة:

وَقَدْ قَسَّمَ المَاوَرْديُّ - رَحمَهُ اللهُ - الإِخْوانَ بحسب المواساة إلى أَرْبَعَة أَقْسامٍ، حَريٌّ بالمرْءِ أَنْ يَعرِضَ نَفْسَهُ عليها؛ ليَعْرِفَ منْ أيِّ الصِّنْفِ هو، وَمَنْ منَ الأَصْناف

(١) رواه البخاريُّ (٢٠٧٧) ومسلم (١٥٦٠).
(٢) رواه مسلم (١٥٦١).
(٣) **آلله**: الأولى قسم سؤال: أي أبالله؟، والثانية قسم جواب، وقد حُذفَ حرفُ القسم، وعُوِّضَ عنه همزة الاستفهام. انظر «موسوعة نضرة النَّعيم» (٨/٣٤٦٥).
(٤) رواه مسلم (١٥٦٣).
(٥) **يَأْسَن**: يتغيَّر لونُهُ، وطَعْمُهُ، ورائحتُهُ.

يُصاحِبُ، وهي: «مِنْهُمْ مَنْ يُعينُ ويَسْتَعين، ومِنْهُمْ مَنْ لا يُعِينُ ولا يَسْتَعين، ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِين ولا يُعِينُ، ومِنهم مَنْ يُعين ولا يَسْتَعين.

فَأَمَّا الُمعِينُ والُمسْتَعِينُ: فَهو مُعاوِض مُنْصِفٌ، يُؤَدِّي ما عَلَيْه، وَيَسْتَوْفي مَا لَهُ، فهُو القَرُوضُ يُسْعِفُ عِندَ الحاجَة، وَيَسْتَرِدُّ عِنْدَ الاستِغْناءِ، وهو مَشْكورٌ في مَعُونَته، وَمَعْذُورٌ في اسْتِعانَته، فَهذا أَعْدَل الإِخوانِ.

وأَمَّا مَنْ لا يُعِين ولا يَسْتَعِينُ: فَهو مَنازِلٌ، قَدْ مَنَعَ خَيْرَهُ، وقَمعَ شَرَّهُ، فَهوَ لا صديقٌ يُرْجىٰ، ولا عدوٌّ يُخْشىٰ، وقَدْ قال الُمغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ – رضي الله عنه –: «التاركُ للإِخْوانِ مَتْروكٌ».

وإِذا كانَ كَذَلِكَ فهو كالصورَةِ الُممَثَّلة، يَرُوقُكَ حُسنُها، ويَخونُكَ نَفْعُها، فلا هُوَ مَذْمومٌ لِقَمْعِ شَرِّه، ولا هوَ مشْكورٌ لِمَنْعِ خَيْرِه، وإِنْ كانَ باللَّومِ أَجْدَر، وقد **قالَ الشَّاعِرُ**:

وَأَسْوأُ أيَّامِ الفَتَى يَومَ لا يُرى ... لَهُ أَحَدٌ يُزْري عليه ويُنكِرُ

غَيْرَ أنَّ فَسادَ الوَقْت، وتَغَيُّرَ أَهْلِه يُوجِبُ شُكْرَ مَنْ كانَ شَرُّهُ مَقْطوعًا، وإِنْ كانَ خَيْرُهُ مَمْنوعًا، **كما قال الُمتَنَبِّي**:

إِنَّا لفي زَمَنٍ تُركُ القَبيحُ بهِ ... مِنْ أَكْثَرِ النَّاس إِحسان وإِجمال

وأَمَّا مَنْ يَسْتَعِين ولا يُعِين: فهوَ لَئيمٌ كَلٌّ (١)، ومَهينٌ مُسْتَذَلٌّ، قَدْ قَطَعَ عَنْهُ الرَّغْبَةَ، وَبَسَطَ فيه الرَّهْبَةَ، فلا خَيْرُهُ يُرْجى، ولا شَرُّهُ يُؤْمَنُ، وَحَسْبُكَ مَهانَةً مِنْ رَجُلٍ مُسْتَثْقلٍ عِنْدَ إِقْلالِه، وَيَسْتَقِلُّ عند اسْتِقْلالِه، فَلَيْسَ لِمثْله في الإِخاءِ حَظٌّ، ولا في الودادِ نَصيبٌ، وهو مِمَّنْ جَعَلَهُ الَمأمون من داءِ الإِخوانِ لا مِنْ دوائِهِمْ، ومِنْ سُمِّهِمْ لا مِنْ غِذَائِهِمْ.

(١) **الكَلُّ**: مَنْ يَعُوله غيرُهُ.

وقالَ بَعْضُ الحُكَماءِ : شَرُّ ما في الكَريمِ أَنْ يَمْنَعَكَ خَيْرَهُ، وخَيْرُ ما في اللَّئيمِ أَنْ يَكُفَّ عَنْكَ شَرَّهُ.

وقالَ ابنُ الرُّوميِّ :

عَذَرْنا النَّخْلَ في إِبداءِ شَوْكٍ ... يَرُدُّ به الأَنامِلَ (١) عن جَناهُ
فَما لِلْعَوْسَجِ المَلْعُونِ أَبْدَى ... لنا شَوْكًا بلا ثَمَرٍ نَراه؟!

أمَّا مَنْ يُعِينُ ولا يَسْتَعِينُ : فَهو كَريمُ الطَّبْعِ، مشكورُ الصُّنْعِ، وقَدْ حَازَ فَضيلَتي الابْتِداءِ والاكتفاءِ، فلا يَرَى ثَقيلاً في نائبَةٍ، ولا يَقْعُدُ عَنْ نَهْضَةٍ في مَعونَةٍ، فَهَذا أشْرَفُ الإِخوانِ نَفْسًا، وأَكْرَمُهُمْ طَبْعًا، فَيَنْبَغي لِمَنْ أَوْجَدَهُ الزَّمانُ مثلَهُ (٢) – وقَلَّ أنْ يكونَ له مِثْلٌ؛ لأَنَّهُ البَرُّ الكَريمُ، والدُّرُّ اليَتيم – أَنْ يَثْنيَ عَلَيْه خِنْصِرَهُ (٣)، وَيَعَضَّ عليه ناجِذَهُ، ويكون به أَشَدَّ ضِنًّا منْهُ بِنَفائسِ أَمْوالِه، وسَنيِّ(٤) ذَخائِره؛ لأنَّ نَفْعَ الإِخوانِ عامٌّ، ونَفْعُ المالِ خاصٌّ، وَمَنْ كانَ أَعَمَّ نَفْعًا فَهوَ بالادِّخارِ أَحقُّ.

وقَالَ الفَرَزْدَقُ:

يَمْضي أَخوكَ، فلا تَلْقى لَهُ خَلَفًا ... والمالُ بَعْدَ ذِهابِ المالِ مُكْتَسَبُ

وَقَالَ آخرُ:

لِكُلِّ شيْءٍ عَدِمْتُهُ عِوَضٌ ... وما لِفَقْدِ الصَّديقِ منْ عِوَضِ»(٥)

---

(١) **الأنامل** : رءوس الأصابع ، واحدتها أَنْمَلَةٌ بفتح الهمزة – وقد تُضَمُّ – والميم .
(٢) **أَوَجده الزمانُ مثلَهُ** : أَظْفَرَهُ به .
(٣) **الخِنْصِر – بكسر الخاءِ والصَّاد –** : الإِصبع الصُّغْرى ، والجمع خَناصِرُ .
(٤) **السَّنيّ** : الرَّفيع .
(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧١– ١٧٢) .

عِيادَةُ المريضِ

عِيادَةُ المَريضِ حَقٌّ مِنْ حُقوقِ الأُخُوَّةِ في اللهِ(١)، ولَها تَأْثيرها في النُّفوسِ والقُلوبِ، فإنَّ أخاكَ الَّذي يُصارِعُ المَرَضَ ويُصارِعُهُ مِنْ أكْثَرِ النَّاسِ حاجَةً إلى سَلْوى، وَعَوْنٍ، وَبَثٍّ للْعَزيمَةِ والأَمَلِ، وإِذكاءِ رُوحِ الطُّمَأْنينةِ والسُّرورِ، ورُبَّما كانَتِ الزِّيارَةُ سَبَبًا - بَعْدَ تَوفيقِ اللهِ - في قَهْرِ السُّقْمِ، والتَّغَلُّبِ على الأَلَمِ، والوقوفِ على القَدَمَينِ، والتَّبَسُّمِ للحَياةِ، مع مَا في ذَلكَ مِنَ الأَجْرِ والثَّوابِ الجَزيلِ.

وهُنا باقَةٌ مِنَ الزَّهْرِ النَّديِّ العَطِرِ مُهْداة مِنَ الرَّسولِ لِمَنْ عادَ مريضًا.

فَعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسول اللهِ - ﷺ - قَال: قَالَ رَسولُ اللهِ - ﷺ -: «**مَنْ عادَ مَريضًا لَمْ يَزَلْ في خُرْفَةِ (٢) الجنَّةِ**». قيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، ومَا خُرْفَةُ الجَنَّةِ؟. قال: «**جَنَاهَا**»(٣).

وعنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**مَنْ عادَ مَريضًا نَادَى مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: طِبْتَ (٤)، وطَابَ مَمْشَاكَ (٥)، وتَبوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً**» (٦).

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**مَنْ أَصْبَحَ اليَومَ**

---

(١) مِمَّا يدلُّ على أنَّها حقٌّ من حقوق الأُخوَّة حديثُ أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**حقُّ المسلم على المسلم خمسٌ: ردُّ السَّلام، وعيادةُ المريض، واتِّباعُ الجنائز، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطس**». رواه البخاريُّ (١٢٤٠) واللَّفظ له، ومسلم (٢١٦٢).

(٢) **خُرْفَةُ الجنة**: الخُرْفَةُ اسم ما يُخْتَرَفُ - أي يُجْتَنَىٰ - من النَّخْلِ حتى يدركَ.

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٨).

(٤) **طِبْتَ**: قال الطيبي: هو دعاء له بأنْ يَطيبَ عيشُهُ في الدُّنيا.

(٥) **طاب ممشاك**: طيب المشي كناية عن سيره وسلوك طريق الآخرة.

(٦) رواه الترمذيُّ (٢٠٠٩)، وابن ماجة (١٤٤٣) وحسَّنَ إسناده الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٦٣).

منْكُمْ صائمًا؟» قالَ أبو بَكْرٍ: أنا. قال: «**مَنْ عادَ منْكُمُ اليومَ مريضًا؟**» . قالَ أبو بَكْرٍ: أنا. قال: «**مَنْ شَهِدَ منْكُمُ اليوْمَ جنازَةً؟**». قالَ أبو بكرٍ: أنا. قال: «**مَنْ أَطْعَمَ منكُمُ اليومَ مسْكينًا؟**». قالَ أبو بكرٍ: أنا. قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**ما اجْتمَعْنَ في رَجُلٍ إلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ**» (١).

وعنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: «**ما منْ امْرِئٍ مُسْلمٍ يَعُودُ مُسْلمًا إلاَّ ابْتَعَثَ اللهُ سَبْعينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ في أيِّ ساعاتِ النَّهارِ كانَ حَتَّى يُمْسيَ، وأَيِّ ساعاتِ اللَّيْلِ كانَ حَتَّى يُصْبحَ**» (٢).

وفي الحديثِ الآتي ذِكْرُهُ يَتَبَيَّنُ لَكَ ما لعِيادَةِ المَريضِ منْ جَلالٍ وَخَطَرٍ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: «**إنَّ اللهَ - سُبْحانَهُ وتعالى - يَقولُ يومَ القيامَةِ: يا ابنَ آدمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْني!. قال: يا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالمينَ؟!. قال: أمَا عَلمْتَ أنَّ عَبْدي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟!، أَمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَني عنْدَهُ؟!. يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْني. قال: يارَبِّ، وكَيْفَ أُطْعِمُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالمينَ؟!. قال: أَمَا عَلِمْتَ أنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟!، أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلكَ عِنْدي؟!. يا ابنَ آدمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِني. قال: يارَبِّ، وكَيْفَ أَسْقيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العالمينَ؟!. قال: اسْتَسْقَاكَ عَبْدي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِه، أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلكَ عِنْدي؟!**» (٣).

ونظرًا لِما لخطورَةِ عِيادَةِ المَريضِ؛ فإنَّ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ يُوجِبُها، ودَليلُهُمْ

---

(١) رواه مسلم (١٠٢٨).
(٢) رواه الترمذيُّ (٩٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٨٧) و«الصحيحة» (١٣٦٧).
(٣) رواه مسلم (٢٥٦٩).

حديثُ أبي موسى الأَشْعَرِيِّ – رضي الله عنه – قال: قالَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**أَطْعِمُوا الجائِعَ، وعُودُوا المَرِيضَ** (١)، **وفُكُّوا العَانيَ** (٢)» (٣).

وقَدْ تَرْجَمَ الإمامُ البُخَارِيُّ للبابِ بقولهِ: «بابُ وُجُوبِ عِيادَةِ المَرِيضِ».

قَالَ الإِمامُ ابْنُ حَجَرٍ: «جَزَمَ بالوجوبِ على ظَاهِرِ الأَمْرِ بالعِيادَةِ، قال ابنُ بطَّالٍ: يُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ الأَمْرُ على الوجوبِ بِمَعْنى الكفَايَة: كإِطْعامِ الجائِعِ، وفَكِّ الأسيرِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يكَونَ لِلنَّدْبِ للحَثِّ على التَّواصُلِ والأُلْفَةِ، وَجَزَمَ الدَّاوُديُّ بالأوَّل (أي الاحتمالِ) فقال: هي فَرْضٌ يَحْمِلُهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ بَعْضٍ.

وقال الجمهورُ: هي في الأَصْلِ نَدْبٌ، وَقَدْ تَصِلُ إلى الوجوبِ في حَقِّ بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ. وَعَنِ الطَّبَريِّ أَنَّها تَتَأَكَّدُ في حَقِّ مَنْ تُرْجى بَرَكَتُهُ، وتُسَنُّ فِيمَنْ يُراعى حالُهُ، وتُباحُ في غَيْرِ ذلك، ونَقَلَ النَّوويُّ الإِجماعَ على عدمِ الوُجوبِ، يَعْني على الأَعْيانِ (٤)» (٥).

---

(١) استدلَّ أهل العلم بذلك على مشروعية العيادة في كُلِّ مريضٍ، رجلاً كان أو امرأةً، كبيراً أو صغيراً، مسلماً أو كافراً، أيًّا كان مرضُهُ. انظر «فتح الباري» (١٠/ ١١٧).
قلتُ: وتجوز عيادةُ المرأة للرجل الأجنبيِّ إذا أَمنَت الفتنة، ولم تكن هناك خَلْوةٌ، ولا يُتوقَّع من تلك الزِّيارة شرٌّ أو فسادٌ، وقدْ زارت أمُّ المؤمنين عائشةُ بلالاً – رضي الله عنهما – كما في البخاريِّ (٦٣٤٩)، ومسلم (٢٦٨١). وأمَّا زيارَةُ الكافرِ فقد زار رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – اليهوديَّ كما في البخاريِّ (٥٦٥٧)، وزار عمَّهُ أبا طالبٍ وهو مُشْرِكٌ كما في زاد المعاد (١/ ٤٩٤). وأمَّا عيادةُ الفاسق أو المبتدع، ومن على شاكلتهما فقد قال العسقلانيُّ: «الصحيح الجواز؛ لأنه مسلم، والعيادة من حقوق المسلمين، وهذا غير حكم المخالطة». انظر «فضل الله الصمد» (١/ ٦٢٦).

(٢) **العاني**: الأسير، يُقال: عَنَا فلانٌ فيهم أسير – من باب سَمَا –: أي أقام على إِسارِه، فهو عانٍ، وقوم عُناةٌ، ونسوةٌ عَوَانٍ.

(٣) رواه البخاريُّ (٥٦٤٩).

(٤) قوله: «على الأعيان» أي على أنها فرض عينٍ، تجب على الجميع، وإلاَّ فكونها فرض كفايةٍ تجب على بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، قد قال به كثيرٌ من الفقهاء.

(٥) «فتح الباري» (١٠/ ١١٧).

آدابُ عِيَادَةِ المَرِيضِ :

ولعِيادَةِ المَريضِ آدابٌ عَديدَةٌ، يَنْبَغي للعائدِ أنْ يُراعيَها عِنْدَ زيارتهِ، منْها[١]:

[١] أَنْ يَلْتَزِمَ بالآدابِ العامَّةِ للزِّيارَةِ: كَأَنْ يَدُقَّ البابَ بِرِفْقٍ، وَأَلاَّ يُبْهِمَ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ، وأَلاَّ يُقابِلَ البَابَ عِنْدَ الاسْتِئذانِ [٢].

[٢] أَنْ تَكونَ العِيادَةُ في وَقْتٍ مُلائِمٍ، فلا تَكُونُ في وَقْتِ الظَّهِيرَةِ صَيْفًا، ولا في شَهْرِ رَمَضَانَ نَهارًا، وإِنَّما تُسْتَحبُّ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، وفي رَمَضَانَ لَيْلاً [٣].

[٣] أَنْ تَكونَ العِيادَةُ بَعْدَ ثلاثةِ أَيَّامٍ منْ أَوَّلِ المرضِ [٤]، وقيلَ: تُسْتَحَبُّ مِنْ أَوَّلِ المَرَضِ [٥]، ورَأْيُ الجمهورِ عَدَمُ التَّقَيُّدِ بِزَمَنٍ، كما قالَ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ [٦].

[٤] أنْ يَدْنوَ العائِدُ منَ المريضِ، وَيَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَيَضَعَ يَدَهُ على جَبْهَتِهِ، وَيَسْأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، وعَمَّا يَشْتَهِيهِ [٧].

[٥] أنْ تكونَ الزيارَةُ غِبًّا (أي زُرْ يَوْمًا وَدَعْ يَوْمًا، أَوْ دَعْ يَوْمَين وَزُرِ اليَومَ الثالثَ) ورُبَّما اخْتَلَفَ الأَمْرُ باختلافِ الأَحْوالِ، سواءٌ بالنِّسْبَةِ للعائدِ أو للمريضِ[٨]،

(١) انظر «موسوعة نضرة النعيم» (٧/ ٢٠٥٧ – ٢٠٥٨).
(٢) بتصرُّفٍ واختصارٍ عن «فتح الباري» (١٠/ ١٣١)، و«إحياء علوم الدِّين» (٢/ ٢٠٩).
(٣) «غذاء الألباب» للسفاريني (٢/ ٨)، و«الآداب الشرعية» لابن مُفْلحٍ (٢/ ٢٠٠).
(٤) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٢١٠).
(٥) ذكر السَّفاريني في «غذاء الألباب» (٢/ ١٨) احتجاج العلماء لكلا الرَّأْيَيْنِ.
(٦) «فتح الباري» (١٠/ ١١٨).
(٧) زاد المعاد» (١/ ٤٩٤).
(٨) «غذاء الألباب» (٢/ ٨)، وقد أورد قول النَّاظم:
فمنهم مُغِبًّا عُدْهُ خَفِّفْ، ومِنْهُم الْـ ... ـلَذِي يُوثِرُ التَّطويلَ مِنْ مُتَوردِ

فإنْ اسْتَدْعَتْ حالةُ المريضِ زيارَتَهُ يَوْميًّا فلا بأسَ بذلكَ، خاصَّةً إذا كانَ يَرْتَاحُ لِذَلِكَ، ويَهَشُّ لَهُ.

[٦] يَنْبَغي لِلْعَائد ألاَّ يُطيلَ الجلوسَ حَتَّى يُضْجِرَ المَريضَ، أَوْ يَشُقَّ على أَهْلِه، فإذا اقْتَضَتْ ذَلِكَ ضَرورَةٌ فلا بَأْسَ (١).

[٧] ألاَّ يُكْثِرَ العائدُ منْ سُؤالِ المَريضِ؛ لأنَّ ذلك يُثْقِلُ عَلَيْه ويُضْجِرُهُ (٢).

[٨] أَنْ يَدْعُوَ العائدُ للمَريضِ بالعَافِيَةِ والصَّلاحِ، وَقَدْ وَرَدَتْ في ذَلكَ أَدْعيَةٌ عَديدَةٌ، منْها: «**أسْأَلُ اللهَ العَظيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**» سَبْعَ مرَّاتٍ، وأَنْ يَقْرَأَ عنْدَهُ الفاتحَةَ، والمُعَوِّذَتَيْن، والإِخْلاصَ (٣).

[٩] أَلاَّ يَتَكَلَّمَ العَائدُ أَمَامَ المَريضِ بِمَا يُقْلِقُهُ ويُزْعِجُهُ، وأَنْ يُظْهِرَ لَهُ مِنْ الرِّقَّةِ واللُّطْفِ ما يُطَيِّبُ به خاطِرَهُ (٤).

[١٠] أنْ يُوَسِّعَ العائدُ للمَريضِ في الأَمَلِ، ويُشيرَ عَلَيْه بالصَّبْرِ؛ لما فيه منْ جَزِيلِ الأَجْرِ، ويُحَذِّرَهُ مِنَ اليأْسِ، وَمِنَ الجَزَعِ؛ لِمَا فيهما مِنَ الوِزْرِ(٥).

[١١] ألاَّ يُكْثِرَ عُوَّادُ المَريضِ مِنَ اللَّغَطِ (٦) والاخْتلافِ بِحَضْرَتِهِ؛ لِما في ذلك مِنْ

---

(١) «فتح الباري» (١٠ / ١١٨)، و«إحياء علوم الدين» (٢ / ٢٠٩).

(٢) «غذاء الألباب» (٢ / ١٢) بتصرُّفٍ. قال في الآداب:

ففكِّرْ وراعِ في العِيادةِ حالَ مَنْ ... تَعُودُ، ولا تُكْثِرْ سُؤَالاً تنكِّدِ.

(٣) انظر هذه الأدعية وغيرها في «زاد المعاد» (١ / ٤٩٤ – ٤٩٥).

(٤) **قال الغزاليُّ**: «ومنها (أي من حقوق المسلم على المسلم) أنْ يَعُودَ مَرْضاهم.. وأدبُ العائدِ: خِفَّة الجِلْسَة، وقلَّة السُّؤال، وإظهارُ الرِّقَّة، والدُّعاء بالعافية، وغَضُّ البَصَرِ عَنْ عَورات الموضعِ، وعند الاستئذان لا يُقابل البابَ، ويدُقُّ برفقٍ ولا يقول: أنا، إذا قيل له: مَنْ؟، ولا يقول: يا غُلام، ولكن يُحَمِّدُ ويُسَبِّحُ». «إحياء علوم الدِّين» (٢ / ٢٠٦).

(٥) «فتح الباري» (١٠ / ١٣١ – ١٣٢).

(٦) **اللَّغَط – بفتحتين –**: الصَّوت والجَلَبة.

إِزْعاجِهِ، ولَهُ في هذه الحالةِ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُمُ الانصرافَ (١) .

[١٢] يُسَنُّ لِمَنْ عادَ مَريضًا أَنْ يَسْأَلَهُ الدُّعاءَ لَهُ (٢) .

(١) عن ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – قال: لما حُضِرَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – وفي البيت رجالٌ ، فيهم عُمرُ بن الخطَّاب، فقال النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم –: «**هلُمَّ أَكْتُبْ لكم كتابًا لا تَضلُّوا بَعْدَهُ أبدًا**» فقال عمرُ – رضي الله عنه – : إنَّ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – قَد غَلَبَ عليه الوجَعُ وعندكُم القرآنُ، حَسْبُنا كتابُ الله. فاخْتَلَفَ أهلُ البيت فاختصموا، ومنهم مَنْ يقول ما قال عمر ، فلمَّا أكثروا اللَّغْوَ والاختلافَ عِنْدَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**قُوموا**» . قال عُبَيْدُ الله : فكان ابنُ عبَّاسٍ – رضي الله عنهما – يقول: «إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرزيَّة ما حال بيْنَ رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – وبيَنَ أنْ يَكتبَ لهم ذلك الكِتابَ مِن اختلافِهِم ولَغَطِهِمْ». رواه البخاريُّ (٧٣٦٦) .

(٢) انظر «غذاء الألباب» (٢ / ١٢) حيث ذكر في ذلك مجموعةً من الأحاديث ، يُقوِّي بعضُها بعضًا .

حِفْـظُ السِّـرِّ

تَذكَّرْ – أَخي في الله – أَنَّ مَنِ اسْتَوْدَعَكَ أَسْرَارَهُ هو أَخٌ أَحَبَّكَ، وَوَثِقَ فيكَ؛ فَكُنْ عندَ حُسْنِ ظَنِّه، وحَافِظْ على أسرارِه، كما تُحافِظُ عَلَى أَيِّ أَمانَةٍ، عَيْنيَّةً كانَتْ أَوْ مادِيَّةً.

فَعَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ الله – رضي الله عنهما – أَنَّ رَسولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قال: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحَديثِ، ثُمَّ التَفَتَ، فَهِيَ أَمانَةٌ**» [١].

قال مقيدة – عفا اللهُ عَنهُ –: «هَذا أَدَبٌ نَبَوِيٌّ عَظيمٌ، حَيثُ عَدَّ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – التفاتَ الرَّجُلِ عِنْدَ كَلامِهِ يَميناً وشمالاً قائماً مَقَامَ إِيداعِ السِّرِّ، وحِفْظِهِ وَعَدَم نَقْلِه».

قالَ ابن رَسْلان: «لأَنَّ التفاتَهُ إِعْلامٌ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ أَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَسْمَعَ حَديثَهُ أَحَدٌ، وَأَنَّهُ قَدْ خَصَّهُ سِرَّهُ، كَأَنَّ الإلتفاتَ قائمٌ مقَامَ: اكْتُمْ عَنِّي، أَي خُذْهُ عَنِّي واكْتُمْهُ، وهو عِنْدَكَ أَمَانَةٌ» [٢].

وإِفْشاءُ السِّرِّ داعٍ لِتَقْويضِ بُنْيانِ الأُخُوَّةِ، والإِتْيان عليها مِنَ القَواعد، ولا تُحْفَظ المودَّةُ بمِثْلِ حِفْظِ الأَسْرارِ، فَحَافِظْ على أَسْرارِ إِخْوانِكَ يَسْتَدِمْ لَكَ وُدُّهم، فإِنْ أَبَيْتَ فَلَسْتَ المَلُومَ، إِنَّما المَلومُ مَنْ وَثِقَ فيكَ.

قال الشَّاعِرُ:

إِذا المرْءُ لم يَحْفَظْ سَريرَةَ نفْسِه … وكان لِسرِّ الأَخِ غَيرَ كَتُومِ
فَبُعْداً له مِن ذي أَخٍ ومَودَّةٍ! … وليس على وُدٍّ له بِمُقيمِ [٣]

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذيُّ (١٩٥٩)، وأحمد (١٤٦٤٤)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٨٦)، و«الصحيحة» (١٠٩٠).

(٢) «عون المعبود» (١٣١٤٨/٧).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٣١٢).

وقال الشافعيُّ:

إِذا المَرْءُ أَفْشَىٰ سِرَّهُ بلِسَانِه ولامَ عليه غَيْرَهُ – فَهو أَحْمَقُ
إِذا ضَاقَ صَدْرُ المرْءِ عَنْ سرِ نَفْسِه فصَدْرُ الَّذي يُسْتَوْدَعُ السرَّ أَضْيَقُ(١)

وإِنْ كانَ لَكَ صَديقٌ هو مُسْتَوْدَعُ أَسْرَارِكَ، فلا تَسْتَوْدِعْهُ أمانَةَ غَيْرِكَ؛ فَصَديقُكَ – أيضًا – له صديقٌ وهكذا، ولا يُؤْمَنُ على السرِّ أَنْ يُصْبِحَ خَبَرًا مُذاعًا.

إِذا ما كَتَمْتُ السِّرَّ عمَّنْ أَوَدُّهُ تَوَهَّمَ أَنَّ الوُدَّ غَيْرُ حَقِيقي
ولم أُخفِ عَنْهُ السِّرَّ مِنْ ظِنَّةٍ(٢) بِهِ ولكنَّني أَخْشَىٰ صديقَ صديقي (٣)

ومَتَى كان الرَّجُلُ مَعْروفًا بِكَتْمِ السِّرِّ، عُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بالوَقَارِ والرَّزانَةِ؛ لأَنَّ إِخْراجَ السرِّ مِنْ فُضُولِ الكلامِ، ولَيْسَ بوَقُورٍ مَنْ تَكَلَّمَ بالفُضُولِ (٤) .

قال الشَّاعرُ يَمْدَحُ وقوراً :

ويَكْتُمُ الأَسْرارَ ، حتَّى إِنَّهُ يَصُونُها عَنْ أَنْ تَمُرَّ ببالِه (٥)

ومِنْ خِلالِ الكَريمِ أنَّهُ يَحْفَظُ سِرَّ صَاحِبِهِ بَعْدَ أَنْ تَتَصرَّمَ (٦) حِبَالُ المَودَّةِ بَيْنَهُما، واللَّئيمُ بالضِّدِّ مِنْ ذَلك.

قالَ الشَّاعِرُ :

لَيْسَ الكريمُ الَّذي إِذَا زَلَّ صاحِبُهُ بثَّ الَّذي كان من أسراره عَلِمَا
بَلِ الكريمُ الَّذي تَبْقى مَوَدَّتُهُ ويَحْفَظُ السِّرَّ، إِنْ صَافَى وإِنْ صَرَمَا(٧)

---

(١) « ديوان الشافعيِّ » (ص٩٢) تحقيق البقاعي.
(٢) **الظِّنَّة – بكسر الظَّاء –** : التُّهَمَةُ – بفتح الهاء –.
(٣) « رسائل الإصلاح » (٢ / ١٧).
(٤) انظرْ « تهذيب الأخلاق » للجاحظ (ص٢٥) .
(٥) « الذريعة إلى مكارم الشَّريعة » للأصفهانيِّ (ص٢٩٧) .
(٦) **تتصرَّم**: تتقطَّع .
(٧) « عين الأدب والسياسة » (ص٧٠) .

وقال آخرُ :

وَتَـرَى الكـريمَ إِذا تَصـــــــرَّمَ وَصْلُـهُ   يُخْـفي القَـبـيحَ، ويُظْـهِـرُ الإِحـسـانا
وترى اللَّئـــيمَ إِذا تَقَــضَّى وصْلُهُ   يُخْفي الجميلَ ويُظهِرُ البُهتانا[١][٢]

(١) **البُهْتان** : الافتراء والكذب، يُقال : بَهَتَهُ – من باب قَطَعَ – أي : قال عليه ما لم يَفعلْهُ.
(٢) «إِحياء علوم الدين» (٢ / ١٩٥).

الوَفَـاءُ

الوفَاءُ: هُوَ المحافَظَةُ على عُهودِ الإِخْوان، سواءٌ كانتْ تلْكَ العهود بَيْعًا، أو دَيْنًا، أوْ شَرْطًا، وهو صدْقُ اللِّسانِ والفعل معًا، والمرادُ به أنْ يَصْبرَ الإنسانُ على أداءٍ يَعِدُ به الغَيْرَ، ويَبْذُلُه مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسه، ويَرْهَنُهُ لسَانُهُ، حَتَّى وإِنْ أَضَرَّ به ذلك(١).

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ - سُبْحانه وتعالى - الوفاء بالعهْد في آيات كَثيرةٍ على سَبيلِ الأَمْرِ، فقال - سُبْحَانَهُ وتعالى -: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وَأَثْنَى اللهُ على الَّذينَ يُوفونَ بعَهْدِهم، فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَأَثْنَى اللهُ على نَبيِّه إسماعيلَ، فقالَ - سُبْحانَهُ وتعالى -: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ [مَرْيم: ٥٤].

وكما أنَّ الوفاءَ بالوعَدِ مِنْ صِفَاتِ المؤْمنينَ الصَّادِقينَ، فَإِنَّ خُلْفَ الوَعْدِ مِنْ صِفَات المنافقينَ.

فعَنْ عبد الله بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - أَنَّهُ قالَ: قَالَ رَسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خالصًا، ومَنْ كَانَتْ فيه خَلَّةٌ منهُنَّ، كَانَتْ فيه خَلَّةٌ من نفَاقٍ حَتَّى يدَعَها: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذا خَاصَمَ فَجَرَ**»(٢).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «**منْ عَلامَاتِ المُنافِقِ ثَلاثَةٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمنَ خَانَ**»(٣).

---

(١) انظر «التعريفات» للجُرجانيِّ (ص٢٧٤)، و«تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٤)، ومسلم (٥٨) واللَّفْظُ له.

(٣) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩) واللَّفْظُ له.

وَكِرامُ النَّاسِ يَنْفِرونَ مِنْ خُلْفِ الوَعْدِ، ويَأْنَفونَ مِنَ الاتصافِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، ويَعْتَبِرونَ الرَّجُلَ الَّذي لا يَتَّصِفُ بالوفَاءِ دَنِيءَ الهِمَّةِ، ساقِطَ المروءَةِ.

قالَ المُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ الشَّيْبانيُّ: «لأَنْ أَموتَ عَطَشًا أَحَبُّ إِليَّ مِنْ أَنْ أُخْلِفَ مَوْعِدًا»(١).

وقالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «وَعْدُ الكَريمِ نَقْدٌ، ووَعْدُ اللَّئيمِ تَسْوِيفٌ»(٢).

وَمِنَ الوَفَاءِ الوفاءُ بالدَّيْنِ، فإِذا اقْتَرَضْتَ مِنْ أَخيكَ إِلى أَجَلٍ مَعْلومٍ، فمن الوفاءِ إِنجازُهُ في وقْتِهِ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – عَنْ رَسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «**أَنَّهُ ذَكَرَ رجلاً مِنْ بَني إِسْرائيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَني إِسرائيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دينارٍ، فَقَالَ: ائْتني بالشُّهَداءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى باللهِ شَهيدًا. قال: فَأْتني بالكَفيلِ. قال: كَفَى باللهِ كَفيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَها إِليه إِلى أجلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ في البَحْرِ، فَقضَى حَاجَتَهُ، ثُمَ التَمَسَ مَرْكبًا يَرْكَبُها، يَقْدَمُ عَليهِ للأَجَلِ الَّذي أجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكبًا، فَأخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَها(٣)، فَأَدْخَلَ فيها أَلْفَ دينارٍ، وصحيفَةً مِنْهُ إِلى صاحِبِه، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَها(٤)، ثُمَّ أَتَى بها إِلى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي تَسَلَّفْتُ فُلانًا أَلْفَ دينارٍ، فَسَأَلَني كَفيلاً، فقُلْتُ: كَفى باللهِ كَفيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وسَأَلَني شَهيدًا، فقُلْتُ: كَفَى باللهِ شَهيدًا، فَرَضِيَ بكَ، وأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكبًا أَبْعَثُ إِليه الذي له، فَلَمْ أَقْدِرْ، وإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بها في البَحْرِ، حَتَّى وَلَجَتْ فيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وهو في ذلك يَلْتَمِسُ مَرْكبًا يَخْرجُ إِلى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الذي كانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ**

(١) «بهجة المجالس» (٢ / ٤٩٤).
(٢) المرجع السابق (٢ / ٤٩٤).
(٣) **نقرها**: ثَقَبَهَا، وبابه نَصَرَ.
(٤) **زجَّجَ موضِعَهَا**: أيْ سَوَّى مَوْضِعَ النَّقْرِ وَأَصْلَحَهُ.

مَرْكبًا قدْ جاءَ بماله، فإذا بالخَشبَةِ الَّتي فيها المالُ، فأَخذَها لأَهْله حطَبًا، فلَمَّا نَشرَهَا وَجدَ المَالَ والصَّحيفَةَ، ثُمَّ قَدمَ الذي كان أَسْلَفَهُ، فأَتى بالأَلْف دينارٍ، فقالَ: واللهِ، ما زلْتُ جاهداً في طَلَب مَرْكَبٍ لآتيكَ بمالكَ، فما وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الذي أتيتُ فيه. قال: هلْ كُنْتَ بَعثْتَ إليَّ بشَيْءٍ؟. قال: أُخْبرُكَ أنِّي لَمْ أَجدْ مَرْكَبًا، قَبْلَ الَّذي جئتُ فيه. قال: فإنَّ اللهَ قدْ أَدَّى عَنْكَ الذي بَعَثْتَ في الخَشَبَةِ؛ فانْصَرِفْ بالأَلْف دينارٍ راشِداً» (١).

والوَفَاءُ يَتَوَقَّفُ على العلاقَة الطَّيِّبَة بينَ النَّاسِ كَافَّةً، والأُخْوَة خَاصَّةً، فإذا انْعَدَمَ انْعَدَمَت الثِّقَة، وأُخُوَّةٌ لا تقُومُ على الوفاءِ لا تَقُومُ لَهَا قائمَةٌ، بَل هي عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ (٢)، فإذَا طَلَبَ منكَ أَخُوكَ مَوْعداً، وغَلَبَ على ظَنِّكَ أنَّكَ لا تَسْتَطيع الوفاءَ بذَلكَ الوَعْد؛ فاعْتَذرْ عَنْ ذَلكَ اعْتذاراً لَطيفًا؛ لئلاَّ تَقَعَ في الحَرَجِ، وَتَفْقدَ عَنْكَ الثِّقَةَ.

قالَ ابنُ حازمٍ:

إذَا قُلْتَ في شَيْءٍ: «نَعَمْ» فَأَتمَّهُ ... فَإنَّ «نَعَمْ» دَيْنٌ على الحُرِّ واجبُ
وإلاَّ فَقُلْ: «لا» تَسْتَرِحْ وَتُرِحْ بِها ... لئَلاَّ يَقُولَ النَّاسُ إنَّكَ كاذبُ (٣)

وقَال المُثْقِّبُ العَبْديُّ الجاهليُّ:

لا تَقُولَنَّ - إذا لَمْ تُرِدْ ... أَنْ تُتِمَّ الوَعْدَ - في شيْءٍ: «نَعَمْ»
حَسَنٌ قَولُ «نَعَمْ» منْ بَعْدِ «لا» ... وقَبيحٌ قَولُ «لا» بَعْدَ «نَعَمْ»

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٢٩١).
(٢) **شَفا كُلِّ شيءٍ**: حَرْفُهُ وطرفُهُ، **والجُرُف - بضمِّ الجيم والرَّاء، ويجوز تسكين الرَّاء -**: ما تَجَرَّفَتْهُ السُّيولُ، وأَكَلَتْهُ من الأَرْضِ.
(٣) «ثمرات الأوراق» للحموي (ص١٤١).

إنَّ « لا » بَعْــدَ « نَعَمْ » فــاحــشــةٌ ... فَــبِـ « لا » فــابْدَأْ، إذا خـفْتَ النَّدَمْ
وإذا قُلْتَ: « نَعَمْ » فــاصْــبِــرْ لهــا ... بِنَجَــازِ الوَعْــدِ؛ إنَّ الخُلْفَ ذَمّ (١)

وإذَا وعَدْتَ أَحَداً معْروفًا، أو عطاءً، أوْ هديَّةً، فلا تَعِدْهُ تَخلُّصًا مِنَ الإِحْراجِ، وَتَعْزِمُ عَلَى عَدَمِ الوَفَاءِ.

قال الشَّاعرُ:

وَلَقَــدْ وَعَــدْتَ وأنْتَ أَكْــرَمُ واعِــدٍ ... لا خَــيْــرَ في وَعْــدٍ بغَــيْــرِ تَمَــامِ
أَنْعِمْ عليَّ بما وَعَــــدْتَ تكرُّمًـــا ... فَالمَطْلُ (٢) يُذْهِبُ بَهْجَةَ الإِنْعَامِ (٣)

وقال آخَرُ:

تَعْــجِــيلُ وَعْــدِ المَرْءِ أُكْــرُومَــةٌ ... تَــنْــشُــــرُ عَنْهُ أَطْيَبَ الــذِّكْــــرِ
والحُــــرُّ لا يَـمْطُلُ مَــعْـــرُوفَــهُ ... ولا يَـلِـيقُ المَـطْـلُ بـالحُـــــرِّ (٤).

ومنَ الوَفَاءِ حِفْظُ الأمانَة، وانْظُرْ – عَافَاكَ اللهُ !– كَيفَ أَصْبَحَ السَّمَوْءَلُ (٥) يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في الوفاءِ بالاتِّفاقِ، وما ذاكَ إلاَّ لاشْتِهارِه بحِفْظِ الأَمَانَة، ومُلَخَّصُ الحادثَة التي وردَ فيها هذَا المَثَلُ: أَنَّ امْرَأَ القَيْسِ الكِنْديَّ لَمَّا أَرادَ المُضِيَّ إلى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، أَوْدَعَ عِنْدَ السَّمَوْءَلِ دُروعًا، وسِلاحًا، وأَمْتِعَةً تُساوي مَبْلَغًا كَبيراً مِنَ المَالِ؛ إذْ أَنَّهُ وَجَدَها عِبئًا ثَقيلاً في سَفَرِهِ إلى الرُّومِ، وكانَ قدْ جعَلَها دَرْءًا للنَّوائبِ والعادياتِ، فَلَمَّا مَاتَ امْرُؤُ القَيْسِ أَرْسَلَ مَلِكُ كِنْدَةَ إلى السَّمَوْءَلِ يَطْلُبُ مِنْهُ ما أَوْدَعَهُ امْرُؤُ القَيْسِ بحجَّةِ أَنَّهُ مِنْ رَعِيَّتِه.

(١) « جواهر الأدب » لأحمد الهاشميُّ (ص٦٥٩).
(٢) **المَطْلُ**: التَّأخير والتَّسويف.
(٣) « المستطرف » (١/ ٢٨٦).
(٤) « نضرة النعيم » (٨/ ٣٦٦٥).
(٥) هو السَّمَوْءَلُ بْنُ حيَّان اليهوديُّ، وهو من شُعراء الجاهليَّة، تُوفِّي سنة (٦٢ ق. هـ).

فقَالَ السَّمَوْءَلُ: لا أَدْفَعُها إلاَّ لُمْسْتَحِقِّها. وأَبى أَنْ يَدْفَعَ إِليه منْها شيئًا، فَعَاوَدَهُ فأبى، وقال: لا أَغْدرُ بِذِمَّتي، ولا أَخونُ أَمَانَتي، ولا أَتْرُكُ الوفاءَ الواجبَ عليَّ.

فَقَصَدَهُ ذَلكَ المَلكُ مِنْ كنْدَة بعَسْكَرِه، فَدَخَلَ السَّمَوْءَلُ في حصْنه، وَامْتَنعَ به، فَحَاصَرَهُ الملكُ، وكَانَ وَلَدُ السَّمَوْءَلِ خَارجَ الحِصْنِ، فَظَفرَ به المَلكُ، فَأَخَذَهُ أَسيرًا، ثُمَّ طَافَ حَوْلَ الحِصْنِ، وصَاحَ بالسَّمَوْءَلِ، فَأَشْرَفَ عليْه مِنْ أَعْلى الحِصْنِ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ لَهُ: إِنَّ وَلَدَكَ قَدْ أَسَرْتُهُ، وها هو معي، فَإِنْ سَلَّمْتَ إِليَّ الدُّروعَ والسِّلاحَ التي لامرئِ القَيْسِ عنْدَكَ، رَحَلْتُ عَنْكَ، وسَلَّمْتُ إِليكَ وَلَدَكَ، وَإِنِ امْتَنَعْتَ مِنْ ذلك، ذَبَحْتُ ولدكَ وأَنْتَ تَنْظُرُ، فَاخْتَرْ أَيَّهُما شئتَ. فَقالَ له السَّمَوْءَلُ: ما كُنتُ لأُخْفِرَ ذمامي[1]، وأُبْطِلَ وفائي؛ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ.

فَذَبَحَ وَلَدَهُ وهو يَنْظُر، ثُمَّ لَمَّا عَجَزَ عَنْ الحِصْنِ رَجعَ خَائبًا، واحْتَسَبَ السَّمَوْءَلُ ذَبْحَ ولده، وصَبَرَ مُحافظَةً على وفائه، فلَمَّا جاء الموسِمُ، وَحَضرَ وَرَثَةُ امرئِ القَيْسِ، سَلَّمَ إِليهم الدُّروعَ والسِّلاحَ، ورأَى حِفْظَ ذمامه، ورعَايَةَ وفائه أَحَبَّ إِليه مِنْ حَياةِ وَلَده وبقائه؛ فصَارَت الأَمْثالُ في الوفاءِ تُضْرَبُ بالسَمَوْءَلِ، وإِذَا مَدَحُوا أهلَ الوفاءِ في الأنَامِ، ذُكِرَ السَّمَوْءَلِ في الأَوَّل[2].

والرَّجُلُ الوَفيُّ – حقًّا – إذا وَعَدكَ، ثُمَّ جئتَهُ على قَدَرٍ، بَادَرَكَ بحاجَتِكَ، وكَفاكَ مُؤْنَةَ الإلحاح[3]، بَلْ مُؤنَةَ السُّؤالِ، **كَمَا قيل**:

وميعادُ الكريمِ عليه دَيْنٌ ... فلا تُزدِ الكريمَ على السَّلامِ
يُذَكِّرُهُ سلامُكَ ما عليه ... ويُغْنيكَ السَّلامُ عَنِ الكلامِ[4]

---

(١) **الذِّمام – بالكسر –**: الحُرْمَة، وأَخْفَرَ بمعنى: نَقَضَ عَهْدَه وَغَدَرَ.
(٢) «نضرة النعيم» (٨/٣٦٦٨).
(٣) **مُؤْنَةَ**: حاجة، والجمع مُؤَن.
(٤) «المستطرف» (١/٢٨٦).

فيا لله، ما أشَدَّ التَّقْصيرَ في هذا الخُلُقِ!، وما أقلَّ الوفاءَ بالوعْدِ في أوساطِ المسلمين!، حَتَّى إِنَّ بَعضَ المتأَثِّرينَ بالحضارةِ الغرْبيَّةِ يَظُنُّ أنَّ الخُلْفَ مِنْ صِفاتِ المسلمينَ، وأَنَّ الوفَاءَ مِنْ صفات الكافرينَ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ إِذا أرادَ تَأْكيدَ الوعدِ، قال: «أَعْطِني وَعْداً إِنْجليزيًّا»! [١].

سَقَى اللهُ أطلالَ [٢] الوفاءِ بِكَفِّهِ ... فَقَدْ دَرَسَتْ [٣] أَعْلامُهُ ومَنَازِلُهْ!

(١) انظر «سوء الخُلُق» للحمد (ص٤٢).
(٢) **أطلال**: جمع طَلَلٍ، وهو ما بقيَ شاخِصاً من آثار الدِّيار القديمة، ويُجْمَعُ - أيضًا - على طُلُولٍ.
(٣) **دَرَسَتْ**: غَابَتْ ومُحِيَتْ.

قَبُولُ العُذْرِ

مِنْ حَقِّ إخوانكَ عليكَ قَبُولُ عُذْرِهِم؛ فَمَتَى أَسَاءَ إليكَ أَحَدُهُم، ثُمَّ جاءَ يَعْتَذِرُ، فَمِنَ الكَرَمِ ألاَّ تُجادِلَهُ؛ فالعُذْرُ عِنْدَ كِرامِ النَّاسِ مَقْبولٌ، والكريمُ – على كُلِّ حالٍ – طالبُ عُذْرِ إخْوانه، واللَّئيمُ طالبُ عَثَرَاتِهم، وكُلٌّ منَّا لابُدَّ أَنْ يَهْفوَ، ويُحِبُّ أن يَجِدَ مَنْ يَعْذُرُهُ، فَمَتى قَبِلْتَ عُذْرَهُ لأوَّلِ وَهْلَةٍ هَابَكَ، واعتَقدَ مَودَّتكَ، مع ما في قَبُولِ العُذْرِ مِنَ الأَجْرِ العظيمِ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ – ﷺ – قالَ: قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ –: «**مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا، أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ**»(١).

ويَتَأَكَّدُ قَبُولُ العُذْرِ في حَقِّ صاحِبِ الوجاهَةِ الذي لا يُعْرَفُ بالشَّرِّ، فلا نُغْلِظْ عليه؛ لأَنَّ الرسول – ﷺ – أَمَرَنا بإِقالةِ عَثْرَتِه.

فَعنْ عَائشَةَ – رضي الله عنها – قالتْ: قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ –: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهيئاتِ عَثَرَاتِهِمْ إلاَّ الحُدُودَ**»(٢).

وإِذَا اعتَذَرَ إليك صاحِبَ الوجاهَةِ أو غيره، فَأَعْرَضْتَ عَنْهُ، كان ذلك سببًا لأنْ يَجِدَ عليكَ في نفْسِه، وكُنْتَ أَنتَ الجاني عليه لا هوَ، دلَّ على ذلكَ حديثُ أبي الدَّرْداءِ – رضي الله عنه – قال: كُنْتُ جالسًا عِندَ النَّبيِّ – ﷺ – إِذْ أَقْبَلَ أَبو بَكْرٍ آخذًا بطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتَيهِ، فقالَ النَّبيُّ – ﷺ –: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فقَدْ غامَرَ**(٣)».

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٠)، وابن ماجة (٢١٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢٩٥٤)، وفي «صحيح الجامع» (٦٠٧١).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٢٩٥٤)، وفي «صحيح الجامع» (١١٨٥)، وفي «الصَّحيحة» (٦٣٨).

(٣) **غامرَ**: أي صنع أمرًا اقتضى له أنْ يَغْضبَ على مَنْ صنعه معه.

فَسلَّمَ وقالَ: إنِّي كانَ بَيْني وبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شيئًا [١]، فَأَسْرَعْتُ إليه، ثُمَّ نَدمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أنْ يَغْفِرَ لي، فأَبى عليَّ، فَأَقْبَلْتُ إليك. فقَالَ: «**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يا أبا بَكْرٍ**» ثلاثًا.

ثُمَّ إنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتى مَنْزِلَ أبي بَكْرٍ، فسأَلَ: أَثَمَّ أبو بكرٍ؟. قالوا: لا. فأتى إلى النَّبيِّ - ﷺ - فسلَّمَ، فجعلَ وَجْهُ النَّبيِّ - ﷺ - يَتَمَعَّرُ [٢]، حتَّى أَشْفقَ أبو بَكْرٍ، فَجثا على رُكْبَتَيْهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ، أَنا كُنْتُ أَظْلَمَ (مرَّتَيْنِ).

فقالَ النَّبيُّ -ﷺ-: «**إنَّ اللهَ بَعَثَني إليكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وقال أبو بكرٍ: صَدَقَ، وواساني بِنَفْسِهِ ومالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تارِكُو لي صاحِبي؟!**» (مرَّتين) فما أُوذيَ بَعْدَهَا» [٣] [٤].

أَبو بَكْرٍ الشَّدْوُ الجميلُ بِكَ ابتكر ... وذِكْرَاكَ قَدْ طَافَتْ على البَدْوِ والحَضَرْ
هُمَامٌ [٥] كأنَّ الشَّمْسَ أَصْغَتْ لفَضْلِه ... وَحَنتْ لَهُ الجَوْزا [٦]، وشَيَّعَهُ القَمَرْ
تَفَرَّدَ في العَلْيَاءِ عَنْ كُلِّ فاضِلٍ ... مَنَاقِبُهُ زَانَتْ رَبِيعَةَ أو مُضَرْ [٧]

أخي، جميلٌ منكَ أنْ تتعاملَ مع النَّاسِ مُراعيًا بَشَرِيَّتَهُمْ، مُقَدِّرًا

---

(١) حقًّا إنَّهم بَشَرٌ، صَدَرَتْ منهم هفواتٌ، لكنْ هَلْ أَخْرَجَتْهم من عداد أهل الفَضْلِ والصَّلاحِ، أم هي مغمورَةٌ في بُحور فضائلهم؟!. لا شكَّ أنَّك توافقني على القول الأخير، فإخوانك ثُمَّ غيرهم من عموم النَّاس بَشَرٌ، يصْدُرُ منهم ما يصدر من البَشَرِ، خُلقوا ضُعَفَاءَ، كما قال اللهُ - سبحانه وتعالى -: ﴿**وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٨] فتعاملْ معهم على ما تقتضيه بشريَّتُهُمْ من جبرِ الخاطر، وإقالة العَثَرَات، وستر العورات.. إلخ.

(٢) **تَمَعَّرَ الوَجْهُ**: ذهبتْ نَضارتُهُ من الغضبِ.

(٣) رواه البخاريُّ (٣٦٦١).

(٤) **قلت**: لقد استفاد عمرُ - رضي الله عنه - من هذه الوقعة، فكانت أعظم دَرْسٍ، حتَّى إنَّه قال بعد ذلك: «كُلُّ الناس منِّي في حلٍّ». كما في «الآداب الشرعية» (١ / ٧١)، فرضي اللهُ عنه وأرضاه.

(٥) **الهُمام**: السَّيِّد الشُّجاع، أو الملك العظيم الهِمَّة.

(٦) **الجَوْزاء**: بُرْجٌ في السماء.

(٧) **ربيعةُ ومُضَرُ**: قبيلتان عربيَّتان، كان رسولُ الله - ﷺ - من قبيلة مُضَرَ من بَني النَّضْرِ بْنِ كِنانَةَ.

وجاهَتَهُمْ، وأجْمَلُ من ذلك أن تَكُونَ مُدْرِكًا لحالاتهم الاجتماعية والنفسيَّة، فتَجْعَل لكُلِّ مقامٍ مقالاً، ولكُلِّ مناسبةٍ حالاً؛ فإنَّهُ لَمَّا بدأتْ بوادرُ عداوَةِ عَبْدِ اللهِ ابن أُبيٍّ لرسولِ اللهِ - ﷺ - قالَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ: «أيْ رسولَ اللهِ، بأبي أنت، اعْفُ عَنْهُ واصْفَحْ» [١]. وعَلَّلَ طَلَبَ العَفْوِ بأَنَّ هذا الرَّجُل كادَ أنْ يُتَوَّجَ مَلِكًا على المدينةِ، وأَنَّهُ أَحسَّ بأنَّ النَّبيَّ - ﷺ - بقدومِهِ إلى المدينةِ قد استلبه مُلكًا، فذلك سرُّ عداوَتِهِ.

ولَمَّا نَزَلَتْ آيةُ القَذْفِ، تَشترطُ أرْبَعَةَ شُهُودٍ، تساءلَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ: «أهكذَا نَزَلَتْ يا رسولَ اللهِ؟!». فتَعَجَّبَ النَّبيُّ - ﷺ - من تساؤلِهِ، غَيْرَ أنَّ الأنصارَ قالوا: «يا رسولَ اللهِ، لا تَلُمْهُ؛ فإنَّهُ رجُلٌ غَيُورٌ». ثُمَّ تَكَلَّم سَعْدٌ: «واللهِ - يا رسولَ اللهِ - إنِّي لأعلمُ أنَّها حقٌّ، وأنها مِنَ اللهِ - تعالى -» [٢].

ووضَّحَ سببَ تساؤُلِهِ بأنَّهُ لو ذَهب يَبْحثُ عن أربعة شُهُودٍ، لكان الزَّاني قد قضى حاجَتَهُ، فَقَبِل رسولُ اللهِ - ﷺ - عُذْرَهُ، وأَعْلَمَهُ أنَّ اللهَ أَغْيَرُ مِنْهُ.

والضَّعفُ البَشريُّ يُصيبُ كُلَّ إنسانٍ، أَلا تَرَى أَنَّ آخِرَ رَجُلٍ يدخُلُ الجنَّةَ، كُلَّمَا أَعْطاهُ مَوْلاهُ شَجَرَةً قريبةً إلى الجنَّة، يستظِلُّ بها، ويشترط مولاه عليه أنْ يُعاهِدَهُ على ألاَّ يطلبَ غيرَها، وبعد أنْ يُعاهدَ اللهَ على ذلك يرى شجرةً غَيْرَها أَقْرَبَ إلى الجنَّة، فَيَطْلُب من مولاهُ أنْ يُدْنيَهُ منها، والرَّسولُ - ﷺ - يقول: «**وربُّهُ يعْذُرُهُ؛ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبْرَ له عَلَيْهِ**» [٣].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٠٧).

(٢) رواه أحمدُ (١/ ٢٣٨)، والقصَّة عند البخاريِّ في الحدود باب (٤٠)، ومسلم في اللِّعان باب (١٦).

(٣) رواه مسلم (١٨٧).

أخي، إذا أتاك أخوك مُعْتَذِرًا فاسْتَقْبِلْهُ بالبِشْرِ (١)، واجْعَلْهُ كَمَنْ لا ذَنْبَ له، وكَأَنَّكَ بذلك تردُّ التحيَّةَ بأَحْسَنَ منهما وأجملَ، ولسانُ حالِكَ **كما قال ابنُ الرُّوميِّ**:

فَـعُـذْرُكَ مَـبْـسـوطٌ لذَنْـبٍ مُـقَـدَّمٌ ... وَوُدُّكَ مَـقْـبـولٌ بأَهْلٍ ومَـرْحَبِ
وَلَوْ بَلَّغَـتْني عَنْكَ أُذْني أَقَـمْـتُـهـا ... لديَّ مَـقَـامَ الكاشِحِ(٢) المُتَكَذِّبِ(٣)
فَلَسْتُ بِتَـقْلِيبِ اللِّسـانِ مُـصـارِمًـا ... خليـلاً، إذا ما القَلْبُ لم يتـقلَّبِ(٤)

أخي ، لا شكَّ أنَّ بَعْضَ الأعْذارِ يَشُوبُها الكَذِبُ (٥)، فماذا تفعَلُ إذا كان المُعْتَذِرُ كاذِبًا في اعْتِذارِه؟.

الجواب بما سطَّره ابنُ القيِّمِ - رَحِمَهُ الله - حيثُ يقول : «مَنْ أسَاءَ إلَيْكَ، ثُمَّ جاءَ يَعْتَذِرُ عَنْ إساءَته، فإنَّ التَّواضُعَ يُوجِبُ عليكَ قَبُولَ مَعْذِرَتِهِ – حقًّا كانت أو باطِلاً – وتَكِلُ سريرَتَهُ إلى اللهِ» (٦).

ويقولُ - أيضًا - : «وعلامةُ الكرمِ والتَّواضُعِ أنَّكَ إذا رَأَيْتَ الخَلَلَ في عُذْرِهِ،

(١) قد كان السّلف يفعلون ذلك، ويَنْفَرِدُ بتلك الخَلَّة عُظماءُ الرجال، قال حليمُ العرب الأحنفُ بن قيسٍ – رَحِمَهُ الله –: «إن اعْتَذَرَ إلَيْكَ مُعْتَذِرٌ فَتَلَقَّهُ بالبِشْرِ». «الآداب الشرعيَّة» (١/٣١٩).
وكانوا – لعظيم أخلاقهم – يَلْتَمِسون المعاذير لإخوانهم قَبْلَ أنْ يَعْتذروا، قال حمدون القصَّار – رحمه الله – : «إذا زَلَّ أخٌ من إخوانكَ، فاطلُبْ لَهُ تسعين عُذْرًا ؛ فإنْ لم يَقْبَلْ ذلك فأنت المعيبُ» «آداب العشرة» (ص٩).
وكانوا يعتبرون عدم قَبُول العُذْر عارًا وشَنَارًا، كما قال بعْضُهُمْ :
«إذا اعْتَذَرَ الجاني محا العُذْرُ ذَنْبَهُ ... وكانَ الذي لا يَقْبَلُ العُذْرَ جانيا».
كما في «مساوي الأخلاق ومذمومها» (ص٣١٢).
(٢) **الكاشح** : الذي يُضْمِرُ لك العَدَاوةَ، وبابه قَطَعَ ، يُقال : كشَحَ له بالعداوة ، وكاشَحَهُ بمعنىً.
(٣) **يُقال** : تَكَذَّبَ فُلانٌ فهو مُتَكَذِّبٌ : إذا تَكَلَّفَ الكذِبَ.
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٣٣٧).
(٥) جاء في الصِّحَاح (٢/٧٣٧) : أنَّ رجلاً اعتذر إلى إبراهيم النَّخَعيِّ – رحمه الله – فقال له : «قدْ عَذَرْتُكَ غَيْرَ مُعْتَذِرٍ ، إنَّ المعاذيرَ يَشُوبُها الكَذِبُ».
(٦) «تهذيب مدارج السَّالكين» (ص٤٣٣).

لا تُوْقِفُهُ عليه، ولا تُحاجُّهُ، وقُلْ: يُمكن أنْ يكنِ الأمرُ كما تقولُ، ولو قُضيَ شيءٌ لكانَ، والمقدورُ لا مدفعَ له، ونحو ذلك» [١].

ولابن حبَّانَ جوابٌ قريبٌ من ذلك، قال - رَحِمَه الله -: «لا يَخْلو المعْتَذرُ في اعْتذارِه منْ إحدى حالتَيْن: إمَّا أنْ يكونَ صادقًا في اعْتذارِه، أو كاذبًا، فإنْ كان صادقًا فَقَد اسْتَحقَّ الغُفْرانَ؛ لأنَّ شرَّ النَّاسِ مَنْ لَمْ يُقِلِ العَثَرات [٢]، ولا يَسْتُر الزَّلاَّت، وإنْ كانَ كاذبًا فالواجبُ على المرءِ ألاَّ يُعاتِبَهُ على الذَّنْب السَّالف، بَلْ يَشْكُر له الإحسانَ المُحْدَثَ الذي جاء به في اعْتِذارِه، وليسَ يَعيبُ المُعْتَذِرَ أنْ ذَلَّ وَخَضَعَ في اعْتِذارِه إلى أخيه» [٣].

وما أجمل ما قاله الشَّافعيُّ:

اقْبَلْ معاذيرَ مَنْ يَأْتيكَ مُعْتَذراً ... إنْ بَرَّ [٤] عنْدَك فيما قال، أو فَجَرا [٥]

لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرضِيكَ ظاهِرُهُ ... وقدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرا [٦]

---

(١) المرجع السابق (ص٤٣٣).

(٢) **العَثْرَةُ**: السَّقْطَةُ.

(٣) «روضة العُقلاء» (ص٣٠٦).

(٤) **برَّ**: صدَقَ.

(٥) **فَجَرَ**: كَذَبَ.

(٦) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٦٠)، تحقيق البقاعي.

النَّصيحة

النَّصيحةُ حقٌّ من حُقوقِ الأُخُوَّةِ ، بل هي دليلُ الأُخُوَّةِ الصادقة بإظهار ما فيه صلاح الأخ المنصوح في معاشِه ومَعَاده ، ومن منثور الحِكَم: «مَنْ أَحبَّك نَهَاكَ، ومَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ» . و«عليك بِمَنْ يُنْذِرُ الإِبْسَالَ (١) والإِبْلاس(٢)، وإِيَّاكَ وَمَنْ يَقُولُ لك: لا باسَ ولا تاسَ» .

وممَّا يدلُّ على أنَّها حقٌّ من حقوق الأُخُوَّة حديثُ أبي هريرةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : «**حقُّ المُسلمِ على المسلم** (٣) **ستٌّ**» . قيل: ما هُنَّ يا رسولَ الله ؟. قَالَ : « **إذا لَقيْتَهُ فسلِّمْ عليه، وإذا دعَاكَ فَأَجبْهُ، وإذا استَنْصَحكَ فَانْصَحْ لَهُ، وإذا عطَسَ فحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ** (٤) ، **وإذا مَرضَ فَعُدْهُ، وإذَا مَاتَ فاتَّبِعْهُ**» (٥) .

وعن أبي رُقَيَّةَ تَميمِ بن أوسٍ الدَّاريِّ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «**الدِّيْنُ النَّصيْحَةُ**» . قُلْنا: لِمَنْ ؟. قَالَ: « **للهِ، ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأئمَّةِ المسلمينَ، وعامَّتِهِمْ**» (٦) .

وهذا الحديث - لأَهَمِّيَّته - عليه مَدَارُ الدِّيْن .

قال النَّوويُّ - رحمه الله - : «قالوا : مَدَارُ الدِّيْنِ على أربعةِ أحاديثَ،

(١) **الإبسال** : الهلاك ، يُقال: أبْسَلَهُ : إذا أسلمه للهَلَكَة.
(٢) **الإبلاس** : الانكسار والحُزْن، يُقال: أَبْلَسَ فُلانٌ : إذا سَكَتَ غَمًّا.
(٣) قوله : «**حقُّ المسلم على المسلم** ..» أخرج الكافرَ، فنصيحته ليس للوجوب. قال الإمام أحمد - رَحِمَه الله - : «ليس على المسلم نُصْحُ الذِّمِّيِّ، وعليه نُصْحُ المسلم» «الآداب الشرعية» (١ / ٢٩٠) ، و«جامع العلوم والحكم» (ص٧٨).
(٤) **تشميت العاطس** : الدُّعاء له بالرَّحمة بقولك له : «يرحَمُكَ اللهُ» .
(٥) رواه مسلم (٢١٦٢) ، وقوله : «**إذا مات فاتَّبِعْهُ**» أي اتبع جنازَتَهُ .
(٦) رواه مسلم (٥٥) .

وأقول: بَلْ مَدَارُهُ على حديث : «**الدِّيْنُ النَّصيحةُ**» »[١] .

وقال ابْنُ الجوزيِّ : « قوله : «**الدِّيْنُ النَّصيحةُ**» أي : النَّصيحةُ أفْضَلُ الدِّينِ وأَكْمَلُهُ» [٢] .

وقال ـ أيضًا ـ : « اعلمْ أنَّ النَّصيحةَ للهِ – عزَّ وجَلَّ – : المناضلةُ عن دينه، والمدافعةُ عن الإشراك به ، وإنْ كان غنيًّا عن ذلك ، ولكن نفعه عائدٌ على العبد. وكذلك النُّصْحُ لكتابه: الذَّبُّ عنه، والمحافظةُ على تلاوتِه. والنَّصيحةُ لرسوله: إقامةُ سُنَّتِه، والدُّعاء إلى دعوته. والنصيحة لأئمَّةَ المسلمين: طاعَتُهُمْ، والجِهادُ معهم، والمحافظةُ على بَيْعَتِهِم، وإهداءُ النَّصائح إليهم دُوْنَ المدائحِ التي تَغُرُّ. والنَّصائح لعامَّة المسلمين: إرادةُ الخير لهم ، ويدخلُ في ذلك تعليمُهُم وتعريفهُمُ اللأَّزمَ، وهدايتُهُم إلى الحقِّ»[٣] .

وقد كَانَ رسولُ اللهِ – ﷺ – يقبلُ النَّصيحةَ مِنْ كُلِّ أَحدٍ، حتَّى من الكافر، ولنا به أُسْوَةٌ.

فعن قتيلة بنت صَيْفيٍّ الجُهَيْنيَّة قالتْ: أتَى حَبْرٌ من الأحبارِ رسولَ اللهِ – ﷺ – فقال : « يا محمَّدُ ، نِعْمَ القومُ أنتم ، لولا أنَّكم تُشْركون! » . فقال رسول الله – ﷺ – : « **سُبْحانَ اللهِ، وما ذاك؟!**» . قال: « تقولون إذا حلفتم: والكعبة! » . قالتْ: فأمهلَ رسول اللهِ – ﷺ – شيئًا ثم قال : « **إنه قَدْ قال ؛ فمَنْ حَلفَ فليَحْلِفْ بربِّ الكعبةِ** » .

قال: « يا مُحَمَّدُ، نِعْمَ القومُ أنتم، لولا أنكم تجعلون للهِ نِدًّا! »[٤] . قال – ﷺ –: «**سُبْحانَ اللهِ، وما ذاك؟!**». قال: « تقولون : ما شاء اللهُ وشِئْتَ » . قالت: فأمهل

(١) «بصائر ذوي التميز» للفيروزأبادي (٥/ ٦٤).
(٢) «كشف المشكل من أحاديث الصَّحيحين» لابن الجوزيّ (٤/ ٢١٩) .
(٣) المرجع السابق (٤/ ٢١٩) .
(٤) **النِّدُّ – بالكسر** –: المِثْلُ والنَّظِير ، والجمع أندادٌ.

رسول الله – ﷺ – شيئًا، ثُمَّ قَال: «**إِنَّهُ قَدْ قَالَ؛ فمنْ قَال: ما شاءَ الله، فَلْيفْصِلْ بَيْنَهُما ثُمَّ شِئْتَ**»(١).

وأقرَّ – ﷺ – أبا هُرَيْرَةَ على ما قاله الشيطانُ، فقد جاء في قِصَّة أبي هُرَيْرَة – رضي الله عنه – مع الشيطان الذي أراد أن يَسْرِقَ مِنْ طَعَامِ الزَّكاة، فأمسكه، ثُمَّ أطلَقَهُ، ثمَّ قَال في الثالثة: «لأَرْفَعَنَّك إِلى رسولِ الله –ﷺ–، وهذا آخرُ ثلاثِ مرَّاتٍ أنَّك تَزْعُمُ لا تعودُ، ثُمَّ تَعودُ». قال: «دعْني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ يَنْفَعُك اللهُ بها». قلتُ: «ما هُنَّ؟». قال: «إذا أَوَيْتَ إِلى فراشِك فاقرَأْ آيةَ الكُرْسيِّ: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإِنَّه لَنْ يزالَ عليك منْ الله حافظٌ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حَتَّى تُصْبِحَ». فقال رسول الله – ﷺ –: «**أَمَا إِنَّه قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ**»(٢).

الإسرارُ بالنَّصيحةِ:

لا شَكَّ أَنَّ الإِسرارَ بالنصيحة من أعظم الأسباب لقَبُولها بَعْدَ توفيق الله، فَحَرِيٌّ بالعاقِل أَنْ يبلغَ المجهودَ في كِتْمانها حَتَّى بَعْدَ بلاغها؛ لأَنَّ إذاعَتَها في وقتها نوعٌ من التَّوبيخ، وبَعْدَ وقتها نوعٌ من المِنَّةِ على المَنْصُوحِ، ورُبَّما كَانتْ فضيحةً، وقد تكونُ من الغِيْبَةِ.

قَالَ مِسْعَرُ بْنُ كِدامٍ ـ رحمه الله ـ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىَ إِليَّ عُيُوبي في سِرٍّ بَيْني وبَيْنَهُ؛ فإِنَّ النَّصيحةَ في المَلإِ تَقْرِيعٌ»(٣).

(١) أخرجه أحمدُ (٦/ ٣٧١ – ٣٧٢)، والحاكم (٤/ ٢٩٧) و صحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٢١٤)، والصَّحيحة (١٣٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٣١١).

(٣) «الآداب الشرعيَّة» (١/ ٢٩٠).

وقَالَ ابْنُ حِبَّانَ - رحمه الله - : « وَعلامةُ النَّاصِحِ إذا أراد زِيْنَةَ المنصوحِ لَهُ أَنْ يَنْصَحَهُ سِرًّا، وعلامةَ من أراد شَيْنَهُ أَنْ يَنْصحَهُ عَلانيةً »(١).

وقَالَ ابن رجبٍ - رحمه الله - :

« فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ قَصْدُهُ النَصِيحَةُ وبَيْنَ من قَصْدُهُ الفضيحةُ ، ولا تلتبسُ إحداهُما بالأُخْرى إلا على مَنْ ليس مِنْ ذَوِي العُقُولِ الصَّحِيحَةِ » (٢).

وقَالَ الشَّافعيُّ - رَحِمَه الله - :

تَعَهَّدْني بِنُصْحِكَ في انْفِرادي ... وجَنِّبْني النَّصيحةَ في الجَماعَةْ
فإنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنْ التَّوْبِيْخِ لا أَرْضَىٰ اسْتِماعَهْ
وإِنْ خَالفْتَني ، وعَصَيْتَ قَوْلي ... فَلا تَجْزَعْ إذا لَمْ تُعْطَ طَاعَةْ (٣).

والنَّصيحة تُقْبلُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، فعلى العاقل أنْ ينظرَ إلى ما قيل، لا إلى مَنْ قَال، فهذا غاية في نُبْلِ النفس، فقد قيل: « لا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَأْخُذَ العِلْمَ مِمَّنْ هو فَوْقَهُ، ومِمَّنْ هُوَ مِثْلُهُ، ومِمَّنْ هو دُوْنَهُ ».

ولا يكونُ المَرْءُ مُتَواضِعًا ـ حقًّا ـ حَتَّى يَقْبَلَ الحقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ قاله ، كائنًا مَنْ كَان ، ولذلك عَرَّفَ الرسولُ - ﷺ - الكِبْرَ بقوله : « **الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ** (٤)، **وغَمْطُ النَّاسِ** (٥) » (٦).

وسُئِلَ الفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ عن التواضع، فقال : « يَخْضَعُ للحقِّ، ويَنْقادُ لَهُ، ويَقْبَلُهُ مِمَّن قَالَهُ » (٧).

---

(١) « روضة العقلاء » (ص٣٢٩).
(٢) « الفَرْقُ بين النصيحة والتعيير » (ص٣٢ - ٣٣).
(٣) ديوان الشافعيِّ (ص٧٩) تحقيق البقاعي.
(٤) **بَطَرُ الحقِّ** : ردُّهُ على قائله ، وعدم قَبُوله منه رَغْم علمه به .
(٥) **غَمَط الناس** : احتقارهم وازدراؤهم، ومَنِ احتقرهم دَفَعَ حقوقَهم .
(٦) رواه مسلم (٩١) عن ابن مسعودٍ.
(٧) « تهذيب مدارج السالكين » (٢ / ٦٨٠).

الدِّفاعُ عَنِ الأخِ في غَيْبَتِهِ

مِنْ حقِّ الأخِ على أخيه أنْ يَحْفَظَهُ في غَيْبَتِهِ، ويَحُوطَهُ من ورائه، ويَرُدَّ قَالةَ السُّوءِ؛ فإذا سمع عنه ما يكره، فليردَّ عنه بما يعلمُ عنه براءته ممَّا نُسِبَ إليه، فإذا سَكَتَ فقد خَذَلَ أخاه في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ، والجزاء مِنْ جنس العمل، فمن نصر أخاه نصره الله، ومَنْ خَذَلَ أخاه خَذَلَهُ اللهُ، دلَّ على ذلك حديثُ جابر بن عبد الله وأبي طَلْحَةَ – رضي الله عنهما – قالا: قَالَ رسُول الله – صلى الله عليه وسلم –: «**ما مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امرأً مُسْلمًا في موضعٍ تُنْتَهَكُ فيه من حُرْمَته، ويُنْتَقَصُ فيه من عِرْضِه – إلا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطنٍ يُحِبُّ فيْه نُصرَتَهُ، وما من امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلمًا في موضعٍ يُنْتَقَصُ فيْه من عِرْضِه، ويُنْتَهَكُ فِيه مِنْ حُرْمَتِه – إلا نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ**»(١).

وعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ – رضي الله عنه – عَنِ النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – أنَّه قال: «**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرضِ أخِيْه، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِه النَّارَ يَوْمَ القيامة**»(٢).

وعَنْ أسْمَاءَ بِنْتِ يزيدَ عن النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «**مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أخِيْه بالغَيْبَة، كَانَ حقًّا على اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ**»(٣).

وَعَنْ عِتْبَانَ – رضي الله عنه – في حديثه الطَّويل المشهور قال: قامَ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – يُصلِّي، فقالوا: «أَيْنَ مالكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ ـ أو ابْنُ الدُّخْشُنِ ـ ؟». فقال بعضُهُم: «ذَلكَ مُنافقٌ لا يُحبُّ اللهَ ورسُولَهُ». فقالَ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم –: «**لا تَقُلْ ذلك، أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لا إله إلا اللهُ، يُريدُ بذلك وَجْهَ اللهِ؟!**». قَالَ: «اللهُ ورسولُهُ أعلمُ».

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٧١)، وأحمد (٤/ ٣٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦٩٠).
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٠)، والتِّرمذيُّ (٤/ ٣٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٢٦٢).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٢٤٠).

قال: «فإنَّا نَرى وَجْهَهُ ونصيحتَهُ إلى المنافقين». فقال رسولُ الله - ﷺ -: «**فإنَّ اللهَ قَدْ حرَّمَ على النَّار مَنْ قَالَ: لا إِله إلا الله، يبْتَغي بذلكَ وَجْهَ الله**»[1].

وَعن كَعْب بْنِ مالكٍ في حديثه الطَّويل في قصَّة توبته قال: قال النَّبيُّ - ﷺ - وهو جالسٌ في القوم بتَبُوكَ: «**ما فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مالك؟**». فقال رَجلٌ مِنْ بني سَلَمَةَ: «يا رسولَ الله، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ[2]، والنَّظَرُ في عِطفَيْه»[3]. فقال له مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ - رضي الله عنه -: «بِئْسَ ما قُلْتَ!، واللهِ - يا رسولَ الله - ما عَلِمْنا عليه إلاَّ خيرًا». فسَكَتَ رسولُ الله - ﷺ -[4].

قال الإمامُ النَّوويُّ - رَحِمَهُ الله -:

«اعلمْ أنَّه ينبغي لمن سَمِعَ غِيْبَةَ مُسْلِمٍ أَنْ يَرُدَّها، ويَزْجُرَ قائلَهَا، فإنْ لم يَزْجُرْهُ بالكلام زَجَرَهُ بيدِه، فإنْ لم يستطعْ باليَدِ ولا باللِّسانِ، فارق ذلك المجلسَ، فإنْ سمع غِيبَةَ شَيْخه، أو غَيْرِه مِمَّن له عليه حقٌّ، أو من أَهْلِ الفَضْلِ والصلاح - كان الاعتناءُ بما ذكرناه أكْثَرَ»[5].

وَلَيْسَ أخوكَ الدَّائِمُ العَهْدِ الَّذي ... يَذُمُّكَ إنْ وَلَّى، ويُرْضَيْكَ مُقْبِلاً
وَلَكِنْ أخوكَ النَّائي[6] ما دُمْتَ آمِنًا ... وصاحبُكَ الأَدْنى[7] إذا الأَمْرُ أَعْضَلا[8]

ولا شَكَّ أنَّ الدِّفاعَ عَن الأخِ في غَيْبتِهِ مِنْ مكارم الأخلاق ومعاليها، ومن الأمور التي تبعثُ على الأُلْفَةِ والمحبَّةِ والمودَّةِ، مع ما في ذلك من الأجر العظيم،

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).
(٢) **البُرْدُ**: كساء مُخطَّطٌ يُلتَحَفُ به، جمعه بُرود، وأَبْراد.
(٣) **عِطْفَيْه**: جانبيه، ومقالة الرجل هذا كناية عن الخُيلاء والعُجْبِ والكِبْر.
(٤) رواه البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٥) «الأذكار» للنَّوويِّ (ص٢٩٤).
(٦) **النَّائي**: البعيد.
(٧) **الأدنى**: القريب.
(٨) **أَعْضَلَ الأمرُ**: اشتدَّ واستغلَقَ.

ولقد تساهل النَّاسُ في هذا الخُلُق ، فلا يقوم به إلا رجلٌ وفيٌّ ، وهذا عزيزٌ .

ومن اللَّطائِف : ما جاء في تاريخ الأندلس أن الوزيرَ هاشمَ بْنَ عبد العزيز بعثَهُ السُّلطانُ محمَّدُ بْنُ عبد الرحمن الأُمَويُّ على رأس جيشٍ، فوقع هذا الوزيرُ أسيرًا في يد العَدُوِّ، وجرى ذكره يومًا في مجلس محمَّد بْن عبد الرحمن، فاستقصره السُّلطانُ، ونَسَبَهُ للطيشِ والعَجَلَةِ، والاستبدادِ بالرَّأي، فلم يَنْطِقْ أَحَدُ الحاضرين في الاعتذار عنه بكلمةٍ، ما عَدَا صديقَهُ الوزيرَ الوليدَ بْن عبد الرحمن ابن غانمٍ، فإنَّه قَالَ: « أَصْلَحَ اللّٰهُ الأميرَ ، إنَّه لم يكنْ من هاشمٍ التَّخَيُّر في الأمور، ولا الخُرُوجُ عَنِ المَقْدُورِ ، بل استعمل جُهْدَهُ ، واستفرغ نُصْحَهُ ، وقضى حَقَّ الإقدام ، ولم يكنْ مَلاكُ النَّصْر [١] بيده ، فَخَذَلَ مَنْ وَثِقَ به ، ونَكَلَ [٢] عَنْه مَنْ كان معه ، فلمْ يُزَحْزِحْ قَدَمَهُ في موطنِ حفاظه [٣] ، حتى مُلكَ مُقْبلاً غَيْرَ مُدبرٍ، مُلَبيًّا غَيْر فَشِلٍ [٤]، فَجُوزِيَ خيرًا عن نفسه وسُلطانه؛ فإنَّه لا طريقَ للملامة عليه ، وليس عليه ما جَنَتْهُ الحَرْبُ الغَشُومُ [٥]، وأيضًا فإنَّه ما قَصَدَ أنْ يَجُودَ بنفسه ، إلا رضىً للأمير ، واجتنابًا لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضى جالبَ التقصير ، فذلك مَعدودٌ في سُوءِ الحَظِّ » .

ووقع هذا الاعتذارُ من السُّلطانِ موقعَ الإعجاب، وشكر للوليد وَفَاءَهُ لهاشمٍ، وترك تَفْنِيْدَ [٦] هاشمٍ ، وسعى في تخليصه .

وَوَصَلَ خَبَرُ هذا الاعتذارِ إلى هاشمٍ ، فكتب خطابَ شُكْرٍ للوليد ، ومما يقولُ في هذا الخطاب : « الصَّديقُ مَنْ صَدَقَكَ في الشَّدَّةِ لا في الرَّخَاءِ ، والأَخُ

(١) **مَلاكُ النَّصْر – بفتح الميم وكسرها –** : ما يقوم به .
(٢) **نكل** : جَبُنَ ، وبابه دَخَلَ.
(٣) **الحفاظ – بالكسر –** : الأَنَفَةُ.
(٤) **الفَشلُ – بوزْن النَّهِم –** : الضَّعِيفُ الجبانُ .
(٥) **الغَشُوم** : الظَّلوم.
(٦) **التَّفنيد** : اللَّوم وتَضْعيف الرَّأي.

مَنْ ذَبَّ عنك في الغَيْبِ لا في المَشْهَدِ ، والوفيُّ مَنْ وَفَى لَكَ إذا خَانَكَ زمانٌ » .

ومِمَّا جاء في هذا الخطاب من الشِّعْر :

أيا ذاكري بالغَيْبِ في مَحْفِلٍ[1] به ... تَصَامَتَ جمْعٌ عِنْدَ جَوَابٍ بِهِ نَصْري

أتَتْني - والبَيْدَاءُ[2] بَيْني وبَيْنَها - ... رُقَى[3] كَلِماتٍ، خَلَّصَتْني مِنَ الأَسْرِ

لَئِنْ قَرَّبَ اللهُ اللِّقَاءَ ، فإنَّني ... سَأجزِيْكَ ما لا يَنْقَضي غَابِرَ[4] الدَّهْرِ

فكتب إليه الوليدُ جوابًا يقولُ فيه :

« وَصَلَني شُكْرُكَ على أَنْ قُلْتُ ما عَلِمْتَ، ولمَ أخْرُجْ عَنِ النُّصْحِ للسُّلطانِ بما ذَكَرْتُهُ للسُّلْطان مِنْ ذلك ، واللهُ - تعالى - شاهدٌ على أنِّي أتيتُ ذلك في مجالسَ غَيْرِ المجلس المنقولِ إلى سيِّدي، وإنْ خَفِيَتْ عن المخلوقِ فما تَخْفَى عَن الخالقِ، ما أردْتُ بها إلا أدَاءَ بعْضِ ما أعتقده لك، وكم سَهِرْتَ وأنا نائمٌ، وقُمْتَ في حقِّي وأنا قاعدٌ ، واللهُ لا يُضيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » [5] .

---

(١) **مَحْفِل القوم** : مُجْتَمَعُهُم ، والجمع مَحَافِلُ.
(٢) **البَيْدَاءُ** : المفَازَة والصَّحْراء، والجمع بِيْدٌ بِوَزْنِ بِيْضٍ .
(٣) **رُقى** : جَمْعُ رُقْيَةٍ ، وهي العُوذَةُ.
(٤) **غابر الدَّهْرِ** : باقيه .
(٥) « الصَّداقة بين العلماء » لمحمَّد بْنِ إبراهيم الحَمَدِ (ص٥٢ - ٥٣) .

مِنْ وَسَائِلِ تَقْوِيَةِ الأُخُوَّةِ

[١] إفْشَاءُ السَّلامِ .

[٢] المُصافَحَةُ .

[٣] التَّوَدُّدُ .

[٤] الهَدِيَّةُ .

[٥] إخْبَارُ مَنْ تُحِبُّ أنَّك تُحِبُّهُ .

[٦] التَّواضُعُ .

[٧] التَّزاوُرُ في اللَّهِ .

إفْشَـاءُ السَّـلامِ

مِنْ حَقِّ أخيك عليك إذا لَقِيْتَهُ أَنْ تُسلِّمَ عليه (١)، فالسَّلام أمانُ اللهِ في الأرض، وهو تحيَّةُ المؤمنين في الجنَّة، وتحيَّةُ أهل الإسلام في الدُّنيا، وطريقُ المحبَّةِ والمودَّة، والسَّلامُ اسْمٌ مِنْ أسماءِ الله - تعالى - قالَ اللهُ - سُبحانَهُ وتعالى -: ﴿ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي حديث التَّشهيد الذي يرويه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ**» (٢).

ومعنى السَّلام: السَّالِمُ من النَّقائص. وقيل: المُسْلِمُ لعبادِهِ.

وقيل: المُسَلِّمُ على أوليائه (٣).

والسلام من أعظم وسائل التحبُّب إلى النَّاسِ، فعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**لا تَدْخُلُوا الجنَّة حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تحابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تحابَبْتُمْ؟، أفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**» (٤).

فعليك - أخي في الله - إذا لَقِيتَ مُسْلِمًا أنْ تُسَلِّمَ عليه؛ فإنَّ الحُبَّ لا يحصل إلا بإفْشَاءِ السَّلام.

فعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «**إذا لَقِيَ أحَدُكُمْ**

---

(١) بَيَّن رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أنَّ من حقِّ المسلم على أخيه المسلم أنْ يُسلِّم عليه؛ ففي صحيح مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**حقُّ المسلم على المُسلم ستٌّ**». قيل: ما هُنَّ يا رسولَ الله؟. قال: «**إذا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عليه، وإذا دعاك فأَجِبْهُ، وإذا استنصحك فانصَحْ له، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فشمِّتْهُ، وإذا مَرِض فعُدْهُ، وإذا مات فاتَّبِعْهُ**».

(٢) رواه البخاريُّ (٨٣١) عن ابن مسعودٍ - رضي الله عنه -.

(٣) فتح الباري (١١/ ١٥).

(٤) رواه مسلم (٥٤).

أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عليه ، فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ ، أو جِدَارٌ، أو حَجَرٌ، ثُمَّ لَقِيَهُ – فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ» [١] .

وإِن استطعتَ – أخي في الله – ألاَّ يَسْبِقَكَ أَحَدٌ إِلى البَدْءِ بالسَّلامِ فَافْعَلْ .

فعَنْ أبي أُمَامَة – ﵁ – قالَ: قالَ رسولُ اللهِ – ﷺ –: «**إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ** [٢] **باللهِ مَنْ بَدأَهُمْ بالسَّلام** » [٣] .

وإِذا دَخَلْتَ مَجْلِسًا فسلِّمْ ، وإِذا أردْتَ القيامَ فَسلِّمْ .

فعن أبي هُرَيْرَةَ – ﵁ – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «**إذا انتهى أحَدُكُمْ إلى المجلس فَلْيُسَلِّمْ، فإذا أراد أنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ؛ فَلَيْسَتِ الأُولى بأَحَقَّ من الآخِرة**»[٤] .

وبَعْضُ النَّاسِ – هَدَاهُمُ اللهُ! – لا يُسَلِّمون إلاَّ على مَنْ يعرفون ، أمَّا مَنْ لم يعرفوه فلا يُسَلِّمون عليه ، وهذا الصنيعُ لا يَجْمُلُ ، فخيرُ الإِسلام أن نُسَلِّمَ على مَنْ عَرَفْنَا ، وعَلَى مَنْ لم نَعْرف .

فعن عبد الله بْنِ عَمْرٍو – ﵄ – أن رَجُلاً سَأَلَ رسولَ الله – ﷺ –: «أَيُّ الإِسلام خَيْرٌ؟» . قال: «**تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرفْتَ، وَمَنْ لم تَعْرِفْ**»[٥] .

ومِنَ السُّنَّة السَّلامُ على الصِّبْيَان، فعن أنس بْنِ مالكٍ – ﵁ – أنَّه مَرَّ على صِبْيانٍ، فسلَّم عليهم، وقال: «كَانَ النَّبيُّ – ﷺ – يَفْعَلُهُ» [٦] .

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٠٠) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩) ، وفي «الصَّحيحة» (١٨٦) ، وفي «صحيح أبي داود» (٣/٩٧٧) .

(٢) أي أحقّهم بالقرب منه بالطَّاعة وذكره – جلَّ وعلا – .

(٣) رواه أبو داود (٥١٩٧) واللَّفْظ له، والتِّرمذيُّ (٢٦٩٤) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٠١١) ، وفي «صحيح أبي داود» (٣/٩٧٦) .

(٤) رواه أبو داود (٥٢٠٨) واللَّفْظُ له، والتِّرمذيُّ (٢٧٠٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٠٠) ، و«الصحيحة» (١٨٣) وفي «صحيح أبي داود» (٣/٩٧٨) .

(٥) رواه البخاريُّ (١٢) ومسلم (٣٩) .

(٦) رواه البخاريُّ (٦٢٤٧) واللَّفْظُ له ، ومسلم (٢١٦٨) .

ويجوز السَّلامُ على النِّساء ، ومحلُّ ذلك عند أَمْنِ الفِتْنَة (١) .

فعن أسْمَاءَ بِنْتِ يزيدَ – رضي الله عنها – « أنَّ رسولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – مَرَّ بي وأنا في جِوارٍ أتراب(٢) ، فسَلَّمَ علينا »(٣) .

ومِمَّا يجلبُ المودَّةَ والمحبَّة أن تُرسلَ سلامَك إلى مَنْ عَرَفْتَ ، ومَنْ لم تَعْرِفْ .

فعن أبي هُرَيْرَة – رضي الله عنه – قال : أَتَى جِبْرِيْلُ النَّبيَّ – صلى الله عليه وسلم – فقال : « **يا رسولَ الله ، هذه خَدِيْجةُ قَدْ أتت ، مَعَها إناءٌ فيه إدامٌ وطعامٌ أو شَرَابٌ ، فإذا هي أَتَتْكَ فاقْرَأْ عليها السَّلام من رَبِّها ومنِّي ، وبَشِّرْها ببَيْتٍ في الجنَّةِ مِنْ قَصَبٍ** (٤) ، **لا صَخَبَ** (٥) **فيه ولا نَصَبَ** (٦) » (٧) .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالتْ : قال لي رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – : « **يا عائشُ ، هذا جبريلُ يُقْرِئُك السَّلامَ** » . قالتْ : قُلتُ : « وعليه السَّلامُ ورحمةُ الله وبركاتُهُ »(٨) .

وإذا بعثَ لكَ أخوك المُسلِّمُ بالسَّلامِ ، فقلْ للرَّسول : وعليك وعليه السلام ، فعن غالبٍ قال : إنَّا لجُلُوسٌ بباب الحَسَنِ ، إذْ جاء رجُلٌ فقال : حَدَّثني أبي عَنْ جدِّي قال : بَعَثَني أبي إلى رسُول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « ائْتِه ، فَأَقْرِئْهُ السَّلامَ » . قال :

---

(١) **قال بعض أهل العلم** : إذا انْتَفَت الموانعُ ، وأُمِنَت الفِتْنَةُ ، جازَ السَّلام على النِّساء : كالعجوز الكبيرة – مثلاً – فإنَّ عليك أنْ تُسلِّمَ عليها ، وتسألها عن حالها ، كما فعل الصحابةُ فقد كانوا يُصلُّون الجُمُعة ، ثم يأتون إلى عجوزٍ في طريقهم ، فَيُسلِّمون عليها . كما في البخاريِّ (٩٣٨ ، ٦٢٤٨) من حديث سَهْل بن سَعْدٍ ، وانظر « في رحاب الأُخُوَّة » للقَرَنيِّ (ص٦٨) .

(٢) **أتراب** : لِدات متساويات في السِّنِّ ، والمفرد تِرْب – بكسر التاء – .

(٣) رواه أبو داود (٥٢٠٤) ، والترمذيُّ (٢٦٩٧) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (١٠٤٨) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٠١٥) ، و« الصحيحة » (٢١٣٩) .

(٤) **القَصَبُ** : اللُّؤْلُؤُ المجوَّفُ .

(٥) **الصَّخَب** : الصَّوت المختلط المرتفع .

(٦) **النَّصَب** : التَّعَبُ .

(٧) رواه البخاريُّ (٣٨٢٠) واللَّفظُ له ، ومسلم (٢٤٣٢) .

(٨) رواه البخاريُّ (٦٢٤٩) ومسلم (٢٤٤٧) .

فَأتَيْتُهُ فقُلْتُ : « إِنْ أبي يُقْرِئُكَ السَّلامَ » . فقالَ : « **وعليكَ وعلى أبِيْكَ السَّلامُ**» [١] [٢] .

(١) رواه أبو داود (٥٢٣١) .

(٢) انظر تفصيل آداب السلام في كتاب « طريقنا للقلوب » للكاتب .

المُصَافَحَةُ

المُصَافَحَةُ مِنْ أعظَم أسباب المحبَّةِ والمودَّة بَيْنَ المسلمين ، مع ما فيها مِنَ الأجْرِ العظيم، فهي سُنَّة، ومِنَ الأعمالِ الصَّالحات التي تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ .

فعن البَـراء بْنِ عـازبٍ – رضي الله عنه – قـال : قـال رسـولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: « **مـا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقيان ، فَيَتَصَافَحَان ، إلا غُفِرَ لهما قَبْلَ أن يَتفرَّقَا** » [١] .

ومِمَّا يدلُّ أنَّها سُنَّة حديثُ ابْنِ مسعودٍ – رضي الله عنه – قال : « عَلَّمَني رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – التَّشَهُّدَ ، وكَفِّي بيْنَ كَفَّيْهِ » [٢] .

وقالَ أَنَسُ بْنُ مالكٍ – رضي الله عنه – : « كَانَ أصحابُ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – إذا تلاقَوْا تَصَافَحُوا، وإذا قَدِمُوا تَعَانَقُوا » [٣] .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رَجُلٌ : « يا رسولَ اللهِ، أَحَدُنا يَلْقى صَدِيْقَهُ، أينْحَني لَهُ؟ » . قال : « **لا** » . قال : « فَيَلْزَمُهُ ويُقَبِّلُهُ؟ » . قال : « **لا** » . قال : « فَيُصَافِحُهُ؟ » . قال : « **نَعَمْ ، إنْ شَاءَ** » [٤] .

وعنه ـ أيضًا ـ قـال : لما جاءَ أهْلُ اليَمَنِ ، قـال رسـولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – : « **قَدْ جَاءَكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ ، وهُمْ أَوَّلُ مَنْ جَاء بالمُصافَحَة** » [٥] .

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قُلتُ لأنسٍ : « أكانتِ المصافحةُ في أصحابِ رسولِ الله

---

(١) رواه أبو داود (٥٢١٢) ، والتِّرمذيُّ (٢٧٢٧) ، وقال: حَسَنٌ غريب ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٧٧٧) ، والصَّحيحة (٥٢٥) .

(٢) رواه البخاريُّ (٦٢٦٥) .

(٣) قال الهيثميُّ في « المجمع » (٨ / ٣٦) : « رواه الطبرانيُّ في الأوسط ، ورجالُهُ رجالُ الصحيح » .

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٧٢٨) وحَسَّنه ، وابن ماجة (٣٧٢) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٨٨٨) ، والصحيحة (١٦٠) .

(٥) رواه أبو داود (٥٢١٣) واللَّفظ له ، وقال الألبانيُّ في صحيح سنن أبي داود (٣ / ٩٧٩) : صحيح إلاَّ أنَّ قوله : « **وهم أوَّلُ** » مُدرجٌ مِنْ قول أنس – رضي الله عنه – . انظر الرَّوض النَّضير (١٠٤٥) .

- ﷺ -؟. قَالَ : « نَعَمْ » (١).

وعن كَعْبِ بْنِ مالكٍ - رضي الله عنه - قال : « دَخَلْتُ المَسْجِدَ ، فإذا برسولِ اللهِ - ﷺ -، فقام إليَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبيدِ اللهِ يُهَرْوِلُ ، حَتَّى صافحني وهنَّأني » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قَالَ : «آخِرُ ما وَدَّعْتُ محمَّدَ بْنَ عليٍّ ، فإنِّي مَعَهُ بالبَقِيْعِ (٣) ، فقال : أَتُرَاكَ غاديًا (٤) ؟. قلتُ : نَعَمْ، فأخذ بيدي فَغَمَزَها، وقال : أَسْتَوْدِعُك اللهَ ، وَأَقرأُ عليكَ السَّلام، أَتَدْري ما غَمْزي بيدي إيَّاك؟، هذا قُبْلَةُ المؤْمِنِ أخاهُ من المؤمنين » (٥) .

وعن أبي أُمَامة صدي بْنِ عَجْلانَ - رضي الله عنه - قال: «مِنْ تَمَامِ تحيَّاتِكُمُ المُصَافحةُ »(٦) .

وقال الحَسَنُ البَصْريُّ - رحمه الله - : « المُصَافحةُ تَزيدُ في الوُدِّ » (٧) .

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٦٣) .
(٢) فتح الباري (١١ / ٥٦) .
(٣) **البقيع** : موضعٌ فيه أُرُوم الشَّجَر من ضُروب شتَّىٰ، وبه سُمِّيَ بقيعُ الغَرْقَدِ، وهي مقبرةٌ بالمدينة.
(٤) **يُقال**: غَدَا يَغْدو فهو غادٍ : إذا ذهب صباحًا.
(٥) « مكارم الأخلاق » للخرائطيّ (٢ / ٨٢٣) .
(٦) « كتاب الإخوان » لابن أبي الدُّنيا (ص١٧٧) .
(٧) « المنتقى من مكارم الأخلاق » (ص١٨٩) .

التــودُّد (١)

الأُخُوَّةُ في الله واحةٌ خضراء ، نديَّة (٢) الأفيَاء (٣) وارفة الظِّلال ، لا تُثْمر، ولا تُؤْتي أُكلَها ما لم تُسقَ بماء التَّودُّدِ ، فالتودُّدُ هو عُنْصرُ حياتها ، وحديقة بهجاتها ، ونفحة من نفحاتها .

فعن النُّعْمانِ بْنِ بشيرٍ – رضي الله عنه – قَالَ: قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهمْ، وتراحُمِهمْ، وتعاطُفِهمْ (٤) مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشتكىٰ منه عُضْوٌ، تداعى لَهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**» (٥) .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ – رضي الله عنه – قال: قالَ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم –: «**لو كُنْتُ مُتَّخذًا خليلاً من أُمَّتي، لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ ومودَّتُهُ**» (٦) .

وَعن عبد الله بن عُمَرَ – رضي الله عنهما – أنَّ رجلاً من الأعراب لَقِيَهُ بطريقِ مكَّةَ، فسلَّم عليه عبدُ الله، وحمله على حمارٍ كانَ يَركَبُهُ، وأعطاهُ عِمامةً كانتْ على رأسه، فقيل له: أصلحك اللهُ، إنَّهمُ الأعرابُ، وإنَّهم يَرْضَونَ باليسير! . فقال عبدُ الله: إنَّ أبا هذا كان وُدًّا لعُمَرَ بن الخطَّاب، وإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «**إنَّ أبَرَ البِرِّ صِلَةُ الوَلَدِ أهْلَ وُدِّ أبيهِ**» (٧) .

---

(١) **التَّودُّد**: مصدر تودَّدَ إلى فلان. قال ابن منظورٍ: «الوُدُّ: الحُبُّ، وتوَدّدَ إليه: تحبَّبَ». وقال ابنُ الأعرابيِّ:
«أقولُ: تودَّني إذا ما لَقِيتَني   برفْقٍ ومعروفٍ من القولِ ناصعِ» اللسان (٣/٤٥٣) .

(٢) **نديَّة** : سَخيَّة .

(٣) **الأفياء**: جمع فيْءٍ ، وهو الظِّلُّ ، ويُجمع – أيضًا – على فُيُوءٍ.

(٤) قال ابن أبي جَمْرَةَ كما في فتحِ الباري (١٠/٤٥٣ – ٤٥٤) : «الذي يظهر أنَّ التَّراحم، والتَّوادُدَ، والتَّعاطُفَ، وإن كانت متقاربةً في المعنى، لكن بَيْنَها فَرْقًا لطيفًا، فأمَّا التَّراحم: فالمراد به أنْ يرحم بَعْضُهُم بعضًا بأُخوَّة الإيمان، لا بسبب شيءٍ آخر. وأما التوادُدُ: فالمرادُ به التَّواصلُ الجالب للمحبَّة: كالتزاور، والتهادي. وأمَّا التَّعاطفُ: فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا، كما يُعْطفُ الثوبُ عليه ليُقوِّيَهُ».

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له .

(٦) رواه البخاريُّ (٤٦٦) واللَّفظُ له ، ومسلم (٢٣٨٢) .

(٧) رواه مسلم (٢٥٥٢) .

يا صـــديقي الذي بَذَلْتُ لَهُ الْوُ دَّ وأَنْزَلْتُــهُ على أَحْـــشَـــائِي

إِنَّ عَــيْنًا أَقْـذَيْتَـهـا (١) لَتُـرَاعـيـ ـك عَلَى مـا بـهــا من الإقــذَاءِ

مــا بـهـا حــاجَــةٌ إِليك ، ولكـنْ هي مـعـقــودةٌ بِحَـبْلِ الوَفـاءِ (٢)

ولابد للوُدِّ أنْ يُبْذَلَ لمن هو أَهْلٌ له .

قـال الجـاحظ : « الوُدُّ: هو المحبَّـةُ المعْـتَـدلَةُ من غَـيْـرِ اتِّبـاعِ الشَّـهْـوةِ، والْوُدُّ مُـسْـتَـحْـسَنٌ من الإنسـان، إذا كـان وُدُّهُ لأهْلِ الفـضلِ والنُّبْلِ، وذوي الوَقَـار والأُبَّهَـة(٣) ، والمتـميِّزين من الناس ، فأمَّا التَوَدُّد إلى أراذلِ النَّاسِ ، وأصاغِرهِمْ ، والأحداثِ ، والنِّسْوَانِ ، وأَهْلِ الخلاعة – فمكروهٌ جدًّا .

وأحسنُ الوُدِّ ما نسجْتَهُ بين منْوَالين متناسبة الفضائل، وهو أوثقُ الوُدِّ وأثبتُهُ، فأمَّا ما كان ابتداؤُهُ اجتماعًا على هَزْلٍ ، أو لطلب لَذَّةٍ – فَلَيْسَ محمـودًا، وليس بباقٍ ولا ثابتٍ » (٤) .

وَيَحسُنُ التَّوسُّطُ في المودَّة ، كما يحسن التوسُّط في سائر الأخلاق .

قال الماوَرْديُّ ـ رَحِمَه الله ـ : « البِرُّ: هو المعرُوفُ، ويتنوَّعُ نوعَيْن: قولاً، وعملاً.

فأمَّا القولُ : فَهُوَ طِيبُ الكلامِ ، وحُسْنُ البِشْرِ ، والتوددُّ بجميل القول ، وهذا يبـعث عليـه حُـسْنُ الخُلُق ، ورقَّـةُ الطَّبْع ، ويجبُ أنْ يَكونَ مـحـدودًا كالسَّخاءِ؛ فإنَّه إنْ أسرف فيه كان مَلَقًا (٥) مذمومًا ، وإن توسَّط واقتصَدَ فيه كان معروفًا وبِرًّا محمودًا » (٦) .

(١) **أَقْذيْتَها** : جعلت فيها القَذَى ، وهو ما يسقط في العين والشراب من ترابٍ وغيره ، والمفرد قَذَاة.
(٢) « العقد الفريد » (٢ / ٢٩٦) .
(٣) **الأُبَّهة** : العَظَمَة والكِبْر.
(٤) انظر « تهذيب الأخلاق » (ص٣٣) .
(٥) **مَلَقًا** : نفَاقًا ، وهو أنْ يُعطيَ بلسانه ما ليس في قلبه .
(٦) « أدب الدنيا والدين » (ص٢٠١) .

أخي في الله، تمسَّكْ بحبل المودَّة ، فإنها كما قيل : « قرابةٌ مستفادةٌ »[١] .

وقالوا : « الصَّديقُ مَنْ صَدَقَكَ وُدَّهُ ، وبَذلَ لك رِفْدَهُ[٢] »[٣] .

وقالوا : « القرابةُ تحتاج إلى مودَّةٍ ، والمودَّةُ لا تحتاج إلى قَرَابةٍ »[٤] .

وقال أبو عليٍّ الكاتب : « روائح نسيم المحبَّة تفُوحُ بين المحبِّين وإن كتموها، وتظهرُ عليهم دلائلُها وإن أخْفَوْها ، وتبدو عليهم وإن ستروها »[٥] .

وقال يحيى بن مُعَاذٍ : « ليس الحُبُّ إلا ما نشأ عليه القلبُ ونَمَا ؛ وربا في أرض المودَّة وسَمَا »[٦] .

وقال العتابي :

وَلَقَدْ بَلَوْتُ النَّاس، ثُمَّ سَبَرْتُهُم ... وخَبَرْتُ[٧] ما وصَلوا من الأنْسَابِ
فإذا القَرَابةُ لا تُقَرِّبُ قاطعًا ... وإذا المودَّةُ أَقْرَبُ الأنْسَابِ[٨]

وقال آخرُ :

لَعَمْري ، لَئنْ قَرَّتْ بِقُرْبِكَ أَعْيُنٌ ... لَقَدْ سَخِنَتْ[٩] بالبَيْنِ منك عُيُونُ
فَسِرْ أو أقِمْ ، وَقْفٌ عليك مَوَدَّتِي ... مَكَانُك مِنْ قلبي عليك مَصُونُ[١٠]

---

(١) « كتاب الإخوان » لابن أبي الدنيا (ص١٤٣) .
(٢) **الرِّفْدُ – بكسر الرَّاء –** : العَطاءُ والصِّلةُ .
(٣) « العقد الفريد » (٢/٢٩٢) .
(٤) « تاريخ بغداد » (١١/٩١) .
(٥) « البداية والنهاية » (١١/٢٢٨) .
(٦) « طبقات الشَّافعيَّة » (٦/٥٦) .
(٧) **خَبَرْتُ** : عَلمْتُ .
(٨) « اللُّباب في تهذيب الأنساب » (٣/٦٠) .
(٩) **سخِنَتْ** : بَكَتْ ، وبابه فَرِحَ .
(١٠) « العِقْدُ الفريد » (٢/٢٩٦) .

الهَدِيَّــةُ

الهديَّةُ لها أثرٌ عظيمٌ في جلب المحبَّة والمودَّةِ إلى القَلْبِ ، والسَّمْعِ، والبَصَرِ، فهي تَجْلِبُ المودَّة ، وتَسْلُبُ السَّخِيمةَ (١) ، وتكسوك المهابة .

وقد حثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على الإهداء، وعلَّلَ ذلكَ بأَنَّ الهَديَّة تجلبُ المحبَّةَ.

فعَن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «**تَهادَوْا تَحَابُّوا**» (٢) .

وحثَّ على قَبُولِ الهديَّة ، وعدمِ ردِّها .

فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**أجِيبُوا الدَّاعي، ولا تَرُدُّوا الهديَّة** » (٣) .

فَحَريٌّ بالعاقل أنْ يقبلَ الهدَّيَّةَ (٤) ولا يَرُدَّها؛ فإنَّ في ردِّها يحصلُ شيءٌ في النُّفوس، فإنْ كانَ يرى أنْ المُهديَ قد تكلَّف له، فعليه أن يُثيْبَهُ بأحسنَ منها، أو مِثلِها، أو بقَدْرِ ما يستطيع، ولا يردّها اقتداءً بالنَّبيِّ - ﷺ -.

فعن عائشةَ - رضي الله عنها - قالتْ: «كان رسولُ اللهِ - ﷺ - يَقْبَلُ الهدَّيَّة، ويُثِيْبُ عليها(٥)» (٦) .

---

(١) **السَّخيمة** : الحقْد ، والجمع سخائم.

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٩٤) ، وأبو يعْلَى في «المسند» ، وحسَّنه الألبانيُّ لشواهِدِه في صحيح الجامع (٣٠٠٤) ، و«إرواء الغليل» (١٦٠١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٥٧) ، وأحمد في «المسند» (١/٤٠٤) ، وأبو يَعْلَى في «المسند» (٩/٢٨٤) ، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٦/٥٥٥) وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٥٨) .

(٤) قَدْ قَبل النَّبيُّ - ﷺ - الهديَّة من المسلم والكافر، وقبلها من المرأة كما قبلها من الرجل، لكن إذا كانت هدية الرجل للمرأة، والمرأة للرجل تأتي من ورائها فتنةٌ ، فتمتنع الهدية لا لكونها حرامًا، ولكن سدًّا للذريعة الموصلة إلى الحرام ، والله أعلم .

(٥) **يُثيب عليها** : أي يُجازي المُهْديَ بهديَّةٍ - أيضًا - .

(٦) أخرجه البخاريُّ (٢٥٨٥) .

هَدَايا النَّاسِ بَعْضِهِمُ لبَعْضٍ ... تُوَلِّدُ في قُلُوبِهِمُ الوِصَالا
وتَزْرَعُ في القُلُوب هَوَىً وودًّا ... وتَكْسُوكَ المهَابةَ والجَلالا
مصَايدُ للقُلُوبِ بغَيْر لَغَبٍ (١) ... وتَمْنَحُكَ المحبَّةَ والجَمَالا

استحبابُ قَبُول الهديَّة قَلِيْلها وكَثِيْرِها :

وعليك – أخي في الله – أنْ تقبلَ الهديَّة، سواء قَلَّتْ أو كَثُرَتْ ، عَظُمَتْ أو حَقُرَتْ؛ فقد كان النَّبيُّ – ﷺ – يَقْبَل القليل كما يقبل الكثير، ويقبلُ الحقيرَ كما يقبلُ الخطير ، وهو الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ .

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ–: «**لَوْ دُعيتُ إلى ذِرَاعٍ – أو كُرَاعٍ (٢) – لأَجبْتُ، ولو أُهْدِيَ إِليَّ ذِرَاعٌ – أو كُرَاعٌ– لَقَبلْتُ**» (٣).

قال الحافظ ابْنُ حَجَرٍ – رحمه الله – : «وخَصَّ الذِّراعَ والكُرَاع بالذِّكْر؛ ليجمع بَيْنَ الأمرين: الحقير ، والخطير؛ لأنَّ الذِّراعَ كانتْ أحبَّ إِليه – ﷺ – من غيرها، والكُرَاعَ لا قيمةَ لَهُ » (٤) .

استحبابُ الإهداء ولو بالقليل :

أي أخي ، جُدْ بالموجود ، ولا تمتنع من الإِهداء لاستقلالك واحتقارك ما عندك؛ لأنَّ الهديَّة لا يُشْتَرطُ فيها أنْ تكونَ شيئًا مُكلِّفًا، فالأساس هو قيمتها المعنويَّة، فهي رَمْزُ المحبَّة، ودليلٌ على المودَّة، فقد حثَّ النَّبيُّ – ﷺ – على الإِهْدَاءِ ولو بالقليلِ، وعدم احتقار الهديَّة، حَتَّى ولو كانتْ ظِلْفَ شَاةٍ.

---

(١) **اللَّغَبُ – بفتحتين –** : التَعَبُ والإِعياءُ، وبابه دَخَلَ.
(٢) **الكُراعُ** : هو من الدَّابة ما بَيْنَ الرُّكبة إلى السَّاق، يُذَكَّرُ ويُؤنَّث، وجمعه كُرُعٌ، وأَكْرُعٌ، ثمَّ أكارِعُ، وفي المَثَلِ: «أُعْطِي العَبْدُ الكُراعَ فَطَمَعَ في الذراعِ» يُضرب لمن أُعْطِيَ شيئًا لم يكنْ يرجوه ، فَطَمِعَ في أكثرَ منه .
(٣) رواه البخاريُّ (٢٥٦٨) .
(٤) «فتح الباري» (٥/ ٢٣٦) .

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**يا نِساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحقِرَنَّ جارَةٌ لجارتها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ** [١]» [٢].

جَاءَتْ سُلَيْمانَ يَوْمَ العَرْضِ هُدْهُدَةٌ أهْدَتْ لَهُ مِنْ جَرادٍ كانت في فِيْها
وأنْشَدَتْ بلسانِ الحالِ قائلةً: إنَّ الهديَّة على مقدار مُهْدِيها
لو كان يُهْدَىٰ إلى الإنسانِ قيمتُهُ لكان يُهْدَىٰ لك الدُّنيا وما فِيْها!.

التَّنزُّه عن المَنِّ بالهديَّة:

واحذرِ المَنَّ بالهديَّة؛ لأنَّك لن تستفيدَ إلا الأذى والمنافرة، مع ما في المِنَّةِ من الوعيد الشديد [٣].

ومن اللَّوم الذي أنت جديرٌ بالابتعاد عنه غايةَ البُعْد استعظامُ الهديَّة، فهو أخو المِنَّةِ، يحولُ صَفْوَ المحبَّة إلى كَدَرٍ، ولذَّاتها إلى مَرارةٍ، فكن منه على حَذَرٍ.

ومن اللطائف في هذا الباب: «أنَّ أبا الهذيل أهدى إلى موسى بن عِمْرانَ دجاجةً، ووصفها بصفاتٍ جليلةٍ، ثُمَّ لم يَزَلْ يَذكُرُهَا، وكُلَّما ذُكِرَ شيءٌ بجمالٍ أو سمنٍ، قال: هو أَحْسَنُ، أو أسمنُ من الدَّجاجةِ التي أهديتُها إليكم، وإنْ ذُكِرَ حادثٌ قال: ذلك قَبْلَ أنْ أُهْدِيَ لكمُ الدَّجاجةَ بشَهْرٍ.

وما كان بَيْنَ ذلك وبَيْنَ إهداءِ الدَّجاجةِ إلا أيَّامٌ» [٤].

قال الشاعرُ:

وإن امْرُؤٌ أَهْدَىٰ إليَّ صَنِيْعَةً وإنْ عَادَ يَذْكُرُها غَداً لَلَئِيْمُ [٥]

---

(١) **فِرْسِنُ الشَّاة**: ظِلْفُها، وهو دون الكعب من الدَّابَّة.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).

(٣) من أدلَّة التَّحْريم ما جاء في صحيحِ مسلمٍ (١٠٦) من حديث أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامة، ولا ينظرُ إليهم، ولا يُزَكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم: المُسْبِلُ، والمنَّانُ، والمُنْفِقُ سلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ**».

(٤) «المستطرف» (ص٣٩٩).

(٥) المرجع السابق (ص٣٩٩).

وإذا بَعَثَ لك أخوك بهديَّةٍ ، ولمْ تجدْ ما تُثيبهُ عليه، فادْعُ له (١) .

ولْتَعْلَمْ – أخي – أنَّ للهديَّة مِنَ المنافع والمسارِّ ما لا يعرفُهُ إلا الواحدُ بَعْدَ الواحدِ ، وإنِي لأَستحبُّ لك لزومَ بَعْثِ الهدايا لإخوانك ، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

إنَّ الهديَّة حُلْوَةٌ ... كالسِّحْرِ تَخْتَلِبُ القُلُوبا
تُدْني البَعيدَ مِنَ الهَوَى ... حتَّى تُصَيِّرَهُ قريبا
وتُعيدُ مُضْطَغِنَ العَدَا ... وَة – بَعْدَ بِغْضَتِه – حبيبا
تَنْفِي السَّخِيْمَةَ ومَنْ ذوي الشـ ... ـحْنَا، وتمتَحِقُ الذُّنوبا (٢)

وإذا قَدِمتْ من سَفَرٍ ، فاحملْ معك هديَّةً متواضعةً ، لمن يعزُّ عليك؛ لأنهم يفرحون بقدومك ، إذا حَمَلْتَ لهمُ الهدايا، ورُبَّما يكرهون لُقْيَاكَ متى أتيت صِفْرَ (٣) اليَدَيْن ، **كما قيل :**

وإذا المسافرُ آب (٤) مُقْلى مُفْلِسًا ... صِفْرَ اليَدَيْنِ مِنَ الَّذي رُجَّاهُ
وَخَلا مِنَ الشَّيءِ الذي يُهْدِيْه للْـ ... إخوانِ عِنْدَ لِقائِهِمْ إيَّاهُ
لم يَفْرَحوا بقدومِه وتَثَاقَلُوا ... بوُرُوْدِه، وتكارَهُوا لُقْيَاهُ
وإذا أتَاهُمْ قَادِماً بهديَّةٍ ... كانَ السُّرُورُ بقَدْرِ مَنْ أَهْدَاهُ

---

(١) ممَّا جاء في الدعاء لمن صنع لك معروفًا حديثُ عد الله بن عُمَرَ – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «**من صنعَ لكم معروفًا فكافِئُوهُ، فإنْ لم تجدوا ما تُكافئوه فادْعوا له، حتَّى تَرَوا أنَّكم قَدْ كافأتموه**» أخرجه النَّسائي (٢٥٦٨) ، وأبو داود (١٦٧٢)، وصحَّح إسناده الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (١/٣١٤) ، و«صحيح الجامع» (٦٠٢١) ، و«الصَّحيحة» (٢٥٤) .

(٢) «روضة العقلاء» (ص٢٤٣) .

(٣) **صِفْرَ**: خالي .

(٤) **آبَ** : رَجَعَ .

إخبارُ مَنْ تُحِبُّ أنَّك تُحِبُّهُ

إذا أحببت شخصًا لله ، وتمكَّن حُبُّهُ في قلبك ، حتَّى استقرَّ في الشَّغَاف (١) – فلا تَكْتُمْ ذلك الحبَّ في نفسك ، بل أخبرْهُ أنَّك تُحَبُّه لله ، فمتى فعلتَ ذلك هَابَك، واعتقدَ مودَّتَك ، ما من ذلك بُدٌّ .

فعن عليِّ بْنِ الحسَينِ بن عليّ بن أبي طالبٍ – رضي الله عنهم – مرفوعًا قال : قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – : **«إذا أحبَّ أحدُكُمْ أخَاهُ في الله فَلْيُعْلِمْهُ ؛ فإنَّه أَبْقَىٰ في الأُلْفَةِ، وأثبتُ في المودَّة»** (٢) .

قال الإمام البغويُّ – رحمه الله – : « ومعنى الإعلام: هو الحثُّ على التَّودُّدِ والتآلفِ، وذلك أنَّه إذا أخبرَهُ استمالَ بذلك قَلْبَه، واجتلبَ وُدَّهُ » (٣) .

وعن أبي ذَرٍّ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **إذا أحبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ، فَلْيَأْتِه في مَنْزِلِه، فَلْيُخْبِرْهُ بأَنَّهُ يُحبُّهُ لله – عَزَّ وَجَلَّ –** » (٤) .

قال البغويُّ – رحمه الله – : « وفيه أنَّه إذا أعلم أنَّه محبٌّ له ، قَبِلَ نُصْحَهُ فيما دلَّهُ عليه من رُشْدِهِ ، ولم يَرُدَّ قَولَهُ فيما دعاه إليه من صلاحٍ، خَفِيَ عليه باطنُهُ »(٥) .

وعن المقدامِ بن مَعْديْكَربَ – رضي الله عنه – مرفوعًا قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «**إذا أَحَبَ أَحَدُكُمْ أخاه ؛ فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ يُحبُّه**» (٦) .

---

(١) **شَغَافُ القلب – بالفتح –** : غلافُهُ ، وهو جلْدةٌ دُونَهُ كالحجاب .
(٢) أخرجه وكيعٌ في الزُّهد (٣٣٧) بسندٍ صحَيحٍ ، وحسَّنه الألبانيُّ في الصحيحة (١١٩٩) .
(٣) « شرح السُّنة » للبغويِّ (١٣ / ٦٧) .
(٤) أخرجه ابن المبارك في « الزُّهْد » (٧١٢) وإسناده صحيح .
(٥) « شرح السنة » (١٣ / ٦٧) .
(٦) أخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد » (٥٤٢) ، وأبو داود (٥٢١٤) ، والتِّرمذيُّ (٢٥٠٢) مع التحفة وصحَّحه ، وهو كما قال.

فيأيُّها المُحِبُّ ، متى سمعتَ أخاك يقول لك : أُحِبُّكَ في الله ، فاستقبلْهُ بالبِشْرِ، ورُدَّ التحيَّةَ بأحسنَ منها وأجملَ، فَقُلْ له : « أَحَبَّكَ الذي أَحْبَبْتَنِي فيه » .

فعن أَنَسِ بْنِ مالك - رضي الله عنه - قال : مَرَّ رجلٌ بالنَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - فقال رجلٌ ممَّن عندَهُ : « إِنِّي لأُحبُّ فلانًا هذا لله » . فقال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - : « **أَعْلَمْتَهُ ؟** » . قال : « لا » . قال : « **قُمْ إِليه فَأَعْلِمْهُ** » . فقام إِليه فأَعَلَمَهُ ، فقال : « أَحَبَّكَ الذي أَحْبَبْتَني له » . ثُمَّ قال : ثُمَّ رَجَعَ فسأَلَهُ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - فأَخْبَرَهُ بما قال، فقال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - : « **أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ، ولك ما احْتَسَبْتَ** » [١] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٥) ، وأحمد (٣ / ١٥٠) ، والحاكم (٤ / ٢٧١) ، وإِسناده صحيح .

التَّواضُعُ

التواضُعُ هو بَذْلُ الاحترام، والعطف، والمجاملة لمن يستحقُّ ذلك (١)، فهو خُلُقٌ يُكْسِبُ صاحبَهُ حُبَّ النَّاسِ ومودَّتَهُم؛ لأنَّهم جُبِلُوا على حُبِّ المتواضع، والتواضعُ علامةُ حُبِّ الله للعبد.

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)**﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابْنُ كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أنْ يكونَ أحدُهم متواضعًا لأخيه ووليِّه، مُتَعَزِّزًا على خَصْمِهِ وعَدُوِّه»(٢).

وعن عِيَاضِ بْنِ حَمارٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**إنَّ الله أوْحَى إليَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يَبْغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ**»(٣).

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وما زاد اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ اللهُ**»(٤).

وقد بَلَغَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - الذُّرْوَةَ (٥) في تواضعه، حتَّى أحبَّهُ كُلُّ مَنْ خالطَهُ.

فعن أنسِ بْنِ مالكٍ - رضي الله عنه - قال: كَانَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - لَيُخَالِطُنَا، حتَّى يقولَ

---

(١) انظر «رسائل الإصلاح» (١/ ١٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٥) **ذِروَةُ الشَّيْءِ - بكسر الذَّال وضمِّها -**: أعْلاهُ ونهايته، والجمع ذُرا.

لأخٍ لي صغيرٍ : « **يا أبا عُمَيْر ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ ؟**[١] »[٢] .

وعن عُـرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْـر – رضي الله عنهما – قـال : سَـأَلَ رجلٌ عـائِشَـةَ – رضي الله عنها – : « هل كـان رسـولُ الله – صلى الله عليه وسلم – يَعْـمَلُ في بَيْـتـه؟ » . قـالـتْ : « نَعَمْ، كَـانَ رسـولُ الله – صلى الله عليه وسلم – يخـصِفُ نَعْلَهُ[٣] ، ويَخِـيْطُ ثوبَهُ، ويَعْـملُ في بيْتِـهِ كـمـا يَعْـمَلُ أَحَـدُكُـمْ في بيته »[٤] .

وعن أنسٍ – رضي الله عنه – قال : جاء رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « يا خيْرَ البريَّةِ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ذاكَ إبراهيمُ** – عليه السلام – »[٥] .

وعنه – أيضًا – أنَّ امرأةً كان في عَقْلِها شيء ؛ فقالتْ : يا رسولَ الله، إنَّ لي إليك حاجةً . فقال : « **يا أُمَّ فُلانٍ ، انْظُري أيّ السِّكَك شئْتِ ، حَتَّى أَقْضِيَ لك حاجَتَكِ** » . فَخَلا معها في بعض الطُّرُقِ[٦] ، حتَّى فَرَغَتْ مِنْ حاجَتِها[٧] .

---

(١) **النُّغير** : تصغير نُغَرٍ ، جمع نُغَرَةٍ ، وهي طَيْرٌ كالعصافير ، حُمْرُ المناقير ، وجمعُ نُغَرٍ نِغْران .

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) .

(٣) **يخصفُ نعلَهُ** : يطبقُ طاقةً على طاقةٍ ويَخْرزها .

(٤) أخرجه البغويُّ في « شرح السنة » (١٣ / ٢٤٢) ، وإسناده صحيح .

(٥) رواه مسلم (٢٣٦٩) .

(٦) **خلا بها في بعض الطُّرق** : أي وقف معها في طريقٍ مسلوكٍ ؛ ليقضي حاجتها، ولم يكن ذلك من الخَلْوَة بالأجنبيَّة ؛ فإنَّ هذا كان في ممرِّ النَاس ، ومشاهدتهم إيَّاه وإيَّاها ، لكن لا يسمعون كلامَها ؛ لأنَّ مسألتها ممَّا لا يظهرُهُ .

(٧) رواه مسلم (٢٣٢٦) .

التَّزاوُرُ في اللهِ

الزِّيارةُ مِنْ أعظمِ وسائلِ تقوية الصِّلة بيْنَ المتحابِّين ، فهي تُحْفَةُ النَّفس للنَّفسِ، يجدُ منها الإِخْوَةُ لَذَّةً وأريحةً وانشراحًا، ومتى كانت الزِّيارةُ خالصةً لله كانت غنيمةً .

فعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « **إنَّ رجلاً زار أخًا له في قريةٍ أخرى، فأَرْصَدَ اللهُ لَهُ على مَدْرَجَته مَلَكًا، فلمَّا أتى عليه قال: أَيْنَ تُريدُ؟. قال: أريدُ أخًا لي في هذه القرية. قال: هَلْ لك من نعمة تَرُبُّها عليه؟. قال: لا، غَيْرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في اللهِ. قال: فإنِّي رسولُ اللهِ إليك بأنَّ اللهَ قد أحبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه** » (١) .

وعن ابْنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**قال الله -تعالى-: وَجَبَتْ مَحَبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسينَ فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتزاورين فيَّ**» (٢) .

عن كَعْب بْنِ عُجْرَةَ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**ألا أُخْبِرُكم برجالِكُم مِنْ أَهْلِ الجنَّة؟: النَّبيُّ في الجنَّة، والشَّهيدُ في الجنَّة، والصِّدِّيقُ في الجنَّة، والمولودُ في الجنَّة، والرَّجُلُ يزورُ أخاهُ في ناحيةِ المِصْرِ في اللهِ في الجنَّة.**

ألا أُخْبِرُكُمْ بنسائِكُمْ مِنْ أهلِ الجنَّة؟: الوَدُوْدُ العَئُوْدُ، التي إذا ظُلِمَتْ، قالت : هذه يدي في يَدِكَ ، لا أَذُوْقُ غَمْضًا حتى تَرضى » (٣) .

ولا شَكَّ أنَّ الزيارة تُنَمِّي المودَّةَ والمحبَّة بَيْنَ المتحابِّين ، والأخُ الودودُ مَنْ يفرح بزيارةِ إخوانهِ ، ويُسْرِعُ لاستقبالهم بوجه باشٍّ يذوب رِقَّةً وخُلُقًا .

---

(١) تقدَّم تخريجه .

(٢) تقدَّم تخريجه .

(٣) «الروض النَّضير» (٤٦) ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٦٠٤) .

وممَّا جاء في زيارةِ السَّلَفِ بَعْضِهِمْ لبعضٍ ما روى الخطيبُ البغداديُّ في «تاريخه» عن النقاش أنَّه قال : « بَلَغَني أنَّ بَعْضَ أصحاب محمَّد بن غالب أبي جَعْفَر المقرئ جاءه في يَوْمِ وَحْلٍ وطِيْنٍ ، فقال له : متى أَشكُرُ هَاتَيْن الرِّجْلَيْنِ اللَّتَيْنِ تَعِبَتَا إِليَّ في مِثْلِ هذا اليوم ؛ لتكسبا فيَّ الثوابَ ؟. ثُمَّ قام بنفسه، فاستقى له الماء ، وغسل رجليه » [١] .

وقد أدركَ السَّلف أهمِّيَّةَ الزِّيارةِ الأخويَّة في زيادةِ الإيمان والعمل الصالح، فكانوا يتزاورون فيما بَيْنَهُمْ ، ولم تكن زيارَتُهُم اجتماعًا على مُؤانسةِ الطَّبْع، وشَغْلِ الوقتِ ، إنما كانت اجتماعًا على التواصي بالحقِّ والصَّبْرِ ، وكَانَتْ مجالِسُهُمْ مجالسَ الفائدة والعِلْمِ .

ومِنَ اللَّطائف ما ذكره ابْنُ الجوزيِّ في « المناقب » ، قال : « قال أبو عُبيدٍ القاسمُ بْنُ سلام : زُرْت أَحمدَ بْنَ حَنْبَلٍ في بَيْته ، فأجلسني في صَدْرِ داره ، وجلس دُوني ، فقلتُ : يا أبا عَبْد الله ، أليس يُقالُ : صاحبُ البيتِ أحقُّ بصَدْرِ بيْته؟!. فقال : نَعَمْ ، يَقْعُدُ ويُقْعِدُ مَنْ يُريدُ. قال : فقلتُ في نفسي: خُذ إليك – يا أبا عُبَيْدٍ – فائدةً.

قال : ثُمَّ قُلْتُ له : يا أبا عَبْدِ الله ، لو كنتُ آتيْكَ على نَحْوِ ما تَستحقُّ ، لأتيتُك كُلَّ يوم.

فقال : لا تَقُلْ، إنَّ لي إخوانًا لا ألْقَاهُم إلاَّ في كُلِّ سنةٍ مَرَّةً ، أنا واثقٌ بمودَّتهم، فَمَنْ ألقى كُلَّ يوم؟!. قال : قُلتْ : هذه أخرى يا أبا عُبَيْدٍ .

فلمَّا أردت القيام قام معي ، فقلتُ : لا تفعلْ يا أبا عَبْدِ الله . فقال : قال الشَّعبيُّ : مِنْ تَمامِ زيارةِ الزَّائر أن تمشيَ معه إلى باب الدَّار ، وتأخذَ برِكَابِهِ [٢] . قال : قُلْتُ: يا أبا عُبيدٍ، هذه ثالثةٌ .

---

(١) « تاريخ بغداد » (٣/١٤٣) .

(٢) **الرِّكاب** : الرَّاحِلة .

قال : فمشىٰ معي إلى باب الدَّار ، وأخذ بركابي ! » (١) .

وذكَر ابن الجوزيِّ أيضًا في « المناقب » عن عبد الله بن أحمدَ بْنِ حَنْبلٍ - رحمه الله - أنَّه قال: « لما أُطْلِقَ أبي من المِحْنَة ، خَشِيَ أنْ يجيءَ إليه إسحاقُ بْنُ راهَويه، فَرَحَلَ أبي إليه، فلمَّا بلغ الريَّ، دخل إلى المسجد ، فجاء مَطَرٌ كأفْوَاه القِرَب، فلمَّا كانت العَتَمةُ (٢) قالوا له : اخرجْ من المسجد ، فإنَّا نريدُ أنْ نُغْلقَهُ. فقال لهم: هذا مسجدُ اللهِ، وأنا عَبْدُ اللهِ. فقيل له: أيُّما أحبُّ إليك: أن تخرجَ، أو نجرّ برجْلِك؟ . قال أحمدُ: فقلتُ: سلامًا، فخرجتُ من المسجد والمطرُ والرَّعْدُ والبَرْقُ ، فلا أدري أيْنَ أضَعُ رجْلي؟ ، ولا أين أتوجَّهُ؟، فإذا رجلٌ قد خرج من دارِه، فقال لي: يا هذا ، أين تمرُّ في هذا الوقت؟!. فقلتُ: لا أدري أين أمرُّ؟. فقال لي: ادْخُلْ. فأدخلني داراً، ونَزَعَ ثيابي، وأعطوني ثيابًا جافَّةً، وتطهَّرْتُ للصَّلاةِ، فدخلت في بيتٍ فيه كَانُونُ (٣) فحمٍ، ولُبُودٌ (٤) ، ومائدةٌ منصوبةٌ، فقيل لي: كُلْ ، فأكلتُ معهم، فقال لي: مِنْ أين أنت؟. قلتُ: أنا من بغْدَاد. فقال لي: تَعْرِفُ رجلاً يُقَالُ له: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبلٍ؟ . فقلتُ: أنا أحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. فقال لي : وأنا اسحاقُ بْنُ راهَوَيْه »(٥) .

قَالَ ليَ المحبوبُ - لَمَّا زُرْتُهُ - : مَنْ ببابي؟ . قُلْتُ : بالبابِ أنا
قال لي : أخْطَأْتَ تعريفَ الهَوَى حينَما فرَّقْتَ فيه بَيْنَنَا
ومَضَىٰ عامٌ فلمَّا جِئْتُهُ أَطْرُقُ البابَ عليه مُوهنَا
قال لي : مَنْ أنتَ؟ قُلْتُ : انْظُرْ فما ثَمَّ إلا أَنْتَ بالبابِ هُنَا

(١) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزيِّ (ص١١٣) .
(٢) **العَتَمةُ** : الثُّلُثُ الأوَّلُ من اللَّيلِ بَعْدَ غَيْبُوبَةِ الشَّفَق، وهو وقت صلاة العِشاء.
(٣) **الكانون** : الموقدُ.
(٤) **اللُّبُودُ** : جمعُ لِبْدٍ - بوزن جِلْدٍ - وهو الفراش المتراكم صُوفُهُ.
(٥) « مناقب الإمام أحمد » (ص٣٠٨) .

قـال لي : أَحْـسَنْتَ تعـريفَ الهَـوَى وَعَـــرَفْتَ الحُبَّ ؛ فـــادْخُلْ يا أَنَا

وللزيارة آدابٌ تختلفُ باختلافِ النَّاسِ وأحوالهم ، فتُراعَى أوقاتُ أعمالهم، وأوقاتُ راحتهم ، وما هو الوقت المناسب للزيارة ، فلا يزورهم في أوقاتٍ تَشُقُّ عليهم، وإِذا أقدمت للزِّيارة فدُقَّ الباب دَقًّا خفيفًا ، ويتأكَّدُ ذلك إِذا كان الدَّقُ ليلاً؛ فقد يترتَّبُ عليه ترويعُ الأطفال ، وأهل البيت ، لقول رسول الله – ﷺ – : «**لا يَحلُّ لمسلمٍ أنْ يُرَوِّعَ مسلمًا**» (١) .

وقال الحافظُ : « أخرج البخاريُّ في الأدب المفرد من حديث أنسٍ أن أبواب النَّبيِّ – ﷺ – كانتْ تُقْرَع بالأظافير » .

ثم عَلَّقَ عليه بقوله : « هذا محمولٌ منهم على المبالغة في الأدب ، وهو حَسَنٌ لمن قَرُبَ محلُّهُ من بابه ، أما مَنْ بَعُدَ بحيث لا يبلغُهُ صوت القَرعِ بالظُّفْرِ، فيستحبُّ أن يُقْرَعَ بما فوق ذلك بحسبه » (٢) .

قال الميمونيُّ : «إِنَّ أبا عبد الله ـ يعني الإِمام أحمد ـ دَقَّتْ عليه امرأة دقًّا فيه بعضُ العُنْفِ، فخرج وهو يقول : هذا دَقُّ الشُّرَطِ » (٣) .

وهذا أحد المحدِّثين أَعْنَفُوا عليه في دَقِّ الباب ، فلم يُحَدِّثْهُمْ (٤) .

وقال ابن مُفْلح ـ رحمه الله ـ : « ولا يَدُقّ الباب بعُنْفٍ لنسبة فاعلِه عُرْفًا إِلى قِلَّةِ الأدبِ ، وفي معناه الصِّياحُ العالي، ونحو ذلك » (٥) .

وإِذا قال لك صاحب البيت : مَنْ هذا ؟ ، فلا تُجِبْ بقولك : أنا ، بل تُفْصِحِ باسمك ، أو كُنْيَتِك ، إِن كنتَ مشهوراً بها .

(١) رواه أحمد (٥/٣٦٢) ، وأبو داود (٥٠٠٤) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٥٣٤) .
(٢) «فتح الباري» (١١/٣٦) .
(٣) «الآداب الشرعية» لابن مُفْلحٍ (١/٤٤) .
(٤) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتمٍ (١/٢٦٧) .
(٥) المرجع السابق (١/٣٩٩) .

فعن محمَّد بْنِ المُنْكَدِرِ قال : سمعت جابرًا – رضي الله عنه – يقول : أتيت النَّبيَّ – صلى الله عليه وسلم – في دَيْنٍ كان على أبي، فدقَقْتُ الباب، قال: «**مَنْ ذَا ؟**» . فقلتُ: أنا. فقال: «**أنا ، أنا** » كأنَّهُ كَرِهَهَا [١] .

وإذا استأذنْت ثلاثًا أو أقلَّ ، وسُكِتَ عنك ، أو أُجِبْتَ بقول صاحب الدَّار : ارجعوا، فالواجب الانصراف فَوْرًا وأنت منشَرِحُ الصَّدْر، فهذا أمر الله .

قال الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ [النور : ٢٨] ؛ لأنَّ ما قال الله فيه: إنَّهُ أزكى لنا ، لا شكَّ أنَّ لنا به خيرًا وأجرًا ، وَقَلَّ أنْ يحصل على الأجر من انصرف مُتبرِّمًا غَيْرَ مُغْتبطٍ.

عن قتادةَ قال : قال رجلٌ من المهاجرين : « لقد طلبتُ عُمْري كُلَّهُ هذه الآية فما أدركتُها، أنْ استأذنَ على بعض إخواني ، فيقول لي : ارْجع ، فأَرْجِعُ وأنا مغتبطٌ لقوله – تعالى–: ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾[٢] .

وعن أبي موسى الأشعريِّ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «**إذا استأذن أحدُكُمْ ثلاثًا ، فَلَمْ يُؤذَنْ لَهُ ، فَلْيَرْجِعْ** » [٣] .

قال الحافظُ ـ رحمه الله ـ : « وفي الحديث ـ أيضًا ـ أنَّ لصاحب المنزل إذا سمع الاستئذانَ ألاَّ يَأذَنَ ، سواء سلَّم مرَّةً ، أمْ مرَّتين ، أمْ ثلاثًا ، إذا كان في شغلٍ له – دينيٍّ أو دُنيويٍّ – يتعذرُ بترك الإذنِ معه للمستأذن » [٤] .

قال الشَّوكاني ـ رحمه الله ـ : « والرُّجُوع أفضلُ من الإلحاحِ وتَكْرارِ الاستئذان، والقُعُود على الباب؛ لأنَّ في ذلك بُعْدًا عن الرِّيبْةِ والدَّناءةِ » [٥] .

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٥٠) ومسلم (٢١٥٥) .
(٢) تفسير الطَّبري (١٨/ ١١٣) .
(٣) رواه البخاريُّ (٦٢٤٥) .
(٤) فتح الباري (١١/ ٣١) .
(٥) فتح القدير (٤/ ٢٠) .

فإذا أُذِنَ لك فتأكَّدْ من عدم انشغالِ صاحب البيت قَبْلَ أن تشغلَهُ ، ويحسُنُ أن تُنْبئَهُ بزيارتك له هاتفيًّا – إن كان له هاتف –؛ حتَّىٰ يستعدَّ لذلك، وينظِّم لك وقتًا، ومن الأفضل أن تكون الزِّيارةُ محدودةَ الابتداء والانتهاء، فمن النَّاسِ مَنْ يأتي في الموعد، ويمدُّ في زيارَتِهِ لساعاتٍ، ممَّا يُوقِعُ المَزُورَ في حَرَجٍ؛ فالوقتُ ثمينٌ عند بعض الناس، فلا بُدَّ أنْ نحترمَ ذلك؛ حتَّى نظلَّ خِفافًا على قُلوبهم.

ومن اللطائف ما ذكره إسماعيلُ بْنُ موسى ، قال : « دخلنا على أَنَسِ بْنِ مالكٍ، ونحن جميعًا من أهل الكُوْفَة ، فحدَّثنا بسبْعَةِ أحاديثَ ، فاستزدْنَاهُ، فقالَ: مَنْ كَانَ لَهُ دِيْنٌ فَلْيَنْصَرِفْ، فانصرفتْ جماعةٌ ، وبقيتْ جماعةٌ أنا فيهم، ثُمَّ قال: مَنْ كَانَ لَهُ حياءٌ فلينصرْف ، فانصرفتْ جماعةٌ، وبقيتْ جماعةٌ أنا فيهم، ثمَّ قال: مَنْ كانتْ لهُ مُرُوْءَةٌ فلينصرفْ، فانصرفت جماعةٌ، وبقيْتْ جماعةٌ أنا فيهم، فقال: يا غِلْمانُ، افْقِئُوهم [١] ؛ فإِنَّه لا بُقيا [٢] على قومٍ لا دِيْنَ لهم، ولا حَيَاءَ لهم، ولا مُرُوْءَةَ » [٣] .

وعليك ـ أيضًا ـ أن تتخوَّلَّ [٤] الزِّيارة ؛ فإنَّ الإكثارَ من الزيارة مُمِلٌّ ، فإنَّ ملازمة زيارتك ـ دائمًا ـ تُورِثُ الفُتُورَ ، وبقدر الملازمة تهون عليه ، وكذلك الإقلال مُخِلٌّ ، ويُقَسِّي القُلُوبَ، لذلك زُرْ أخاك وقتًا بَعْدَ وقتٍ [٥] .

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «**زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا**»[٦] .

---

(١) **افقئوهم** : أخرجوهم .
(٢) **لا بُقيا** : لا بقاء.
(٣) « الجامع » للخطيب البغداديِّ (١ / ٢١٥) .
(٤) **التّخوُّل** : التَّعهُّد.
(٥) انظر « الحب في الله » لسليم الهلاليِّ (ص٢٧) .
(٦) صحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٥٦٨) .

وما أجملَ ما قيل :

إِذا شِئْتَ أَنْ تُقْلَى[١] فَزُرْ مُتَواتِرًا
وإِنْ شِئْتَ أنَ تَزْدَادَ حُبًّا فَزُرْ غِبًّا[٢]

وقال المُبَرِّدُ :

عليك بإِقْلالِ الزِّيارة؛ إِنَّها
تكونُ – إذا دَامَتْ – إِلى الهَجْرِ مَسْلَكًا

فإِنِّي رأيتُ القَطْرَ[٣] يُسْأَمُ دائمًا
ويُسْأَلُ بالأَيْدي إِذا هُوَ أُمْسِكا[٤]

وقال أبو تمَّام :

وطولُ مُقَامِ المَرْءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ[٥]
لديباجَتَيْه، فاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

فإِنِّي رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً
إِلى النَّاسِ أنْ لَيسَتْ عليهم بسَرْمدِ[٦][٧]

واللَّبيبُ الفَطِنُ يتعاهد إِخوانَه بالزِّيارة ، كُلَّما لاح له لائحُ الشَّوق ، **كما قيل:**

أَزُورُ خَليلي ما بدا لي هَشُّهُ
وقابَلَني مِنْهُ البَشَاشَةُ والبِشْرُ

فإِنْ لم يكنْ هَشٌّ وبشٌّ تركْتُهُ
ولو كان في اللُّقْيا الوِلايَةُ والبِشْرُ[٨].

---

(١) **تُقْلى** : تُبْغض.
(٢) «الآداب الشرعيَّة» (٤ / ٢٣٠) .
(٣) **القَطْر – بالفتح –** : المطر ، والمفرد قَطْرَةٌ.
(٤) «الآداب الشرعية» (٤ / ٢٣٠) .
(٥) **مُخْلق** : مُصَيِّر للبِلَىٰ والقِدَم.
(٦) **السَّرْمَد** : الدَّائم .
(٧) «الآداب الشرعية» (٤ / ٢٣٠) .
(٨) المرجع السابق (٤ / ٢٢٩ – ٢٣٠) .

الخاتِمَةُ

فإني أَحْمَدُ اللهُ على ما مَنَّ به عليَّ بهذا البحث ، وأحمدُهُ على جميع نعمائِه الظاهرةِ والباطنةِ ، وأحمَدُهُ على توفيقِهِ وإِحسانِهِ، وجُوْدِهِ وامتنانِهِ ، فهو أَهْلٌ للمحامد كُلِّها .

يا مَنْ له كُلُّ الخلائق تَصْمُدُ[١] ... يا ربِّ ، حَمْداً ليس غَيْرُكَ يُحْمَدُ
ورأيتُ بابَك واسعًا لا يُوصَدُ ... أبوابُ غَيْرِك – ربَّنا – قَدْ أُوصِدَتْ[٢]

نحمَدُ اللهَ على ما مَنَّ به علينا من نعمة الأُخُوَّة ، ونسأله أن يزيدنا من فضله علماً وإيمانًا ، وهدىً وثباتًا ، وما ذلك على الله بعزيزٍ .

ولم أقْدرْ على إخفاءِ حالٍ ... يَحُولُ بها الأَسىٰ دُونَ التَّأَسِّي
وحُبُّكَ مالكٌ لَحْظِي ولَفْظِي ... وإِظْهاري وإِضماري وحِسِّي
فإِنْ أَنْطِقْ فَفِيكَ جميعُ نُطْقي ... وإِنْ أَسْكُتْ فَفِيكَ حديثُ نَفْسِي

وها قد وصل البحث إلى منتهاه ، فأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وينفعني به ووالديَّ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، وأن يجعله سبيلاً لأُخُوَّةٍ صالحةٍ خضراء نَديَّة[٣] الأَفْيَاء[٤] ، وارفة الظِّلال ، يعيش في ظلالها من أراد الله له أن يعيش حياةً سعيدةً ، يتذوق حلاوتها ، ويهتدي بهديها، ويقطع بها عناء السفر الطويل ، ويَحْدُو بصاحبه ، ويُذكِّرُهُ بمآلَهُ عند الله، محذِّرًا له من فتنة الطريق .

(١) **يُقال** : صَمَدَهُ – من باب نَصَرَ – : أي قَصَدَهُ في حوائجه.
(٢) **أُوْصدَتْ** : أُغْلقَتْ .
(٣) **نَديَّة** : سخيَّة جَوَاد.
(٤) **الأَفْياء** : جمع فَيْءٍ ، وهو الظِّلُّ ، ويُجمع – أيضًا – على فُيُوءٍ.

جعلنا الله وإِيَّاكم من الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنَهُ ، وسبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفون ، وسلامٌ على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين .

أبو عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي

فهرس

فهرس

الموضـــوع	رَقْم الصفحة
[١] المقدمة	٥
[٢] تعريف نعمة الأُخُوَّةِ	٧
[٣] فَضَائِلُ الأُخُوَّةِ	١٠
من آداب الأُخُوَّةِ :	١٥
[١] التَّجَرُّدُ في الأُخُوَّةِ	١٧
[٢] انتقاءُ الإِخْوَانِ	١٩
[٣] الأُلْفَةُ	٢٦
[٤] التَّعَارُفُ	٣٦
[٥] التوسُّطُ في المَحَبَّة	٤١
[٦] عَاطِفَةُ الأُخُوَّةِ	٤٢
[٧] مَنْ لَكَ بأخِيْكَ كُلِّهِ ؟!	٤٨
[٨] أَقْلِلْ عِتَابَكَ	٥١
مِنْ حُقُوقِ الأُخُوَّةِ :	٥٥
[١] المُوَاساةُ	٥٧
[٢] عيادةُ المريضِ	٦٤
[٣] حِفظُ السِّرِّ	٧٠
[٤] الوَفَاءُ	٧٣

[٥] قَبُولُ العُذْرِ ٧٩
[٦] النَّصيحةُ ٨٤
[٧] الدِّفاعُ عَنِ الأخ في غَيْبَتِهِ ٨٨
مِنْ وسائل تقوية الأُخُوَّةِ : ٩٣
[١] إِفْشاءُ السَّلامِ ٩٥
[٢] الْمُصَافحَةُ ٩٩
[٣] التَّوَدُّدُ ١٠١
[٤] الهدِيَّةُ ١٠٤
[٥] إِخْبَارُ مَنْ تُحِبُّ أنَّك تُحِبُّهُ ١٠٨
[٦] التواضُعُ ١١٠
[٧] التَّزَاوُرُ في الله ١١٢
الخاتمة ١١٩
الفهرس ١٢١